مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الثامن - محرم - ربيع الأول ١٤٢٥هـ مارس - مايو ٢٠٠٤م

٨

- المتاحف الأهلية في المدينة المنورة
- دور بني العباس في إدارة المدينة المنورة
- الحياة الاجتماعية في مكة و المدينة في القرن الهجري الثامن
- ابن عساكر وكتابه إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر
- انتشار حالات زيادة الوزن في فئة الشباب في المدينة المنورة (دراسة ميدانية)

ظاهرة المتاحف الأهلية بالمدينة المنورة

د. عبد الباسط عبد الرزاق بدر

مدير عام مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مدخل

المتاحف ظاهرة حضارية كبيرة ، تحمل الكثير من تراث الأمة وجوانب الإبداع فيها ، فتحفظه ، وتقدِّمه للأجيال المتوالية ، ليروا فيه عَيانًا آثار أسلافهم ، وعطاءات مبدعيهم ، فينمو ارتباطهم بجذورهم ، ويَمْتَلِئُوا فخرًا بما قدمه المبدعون من عطاء متميز .

لذلك تحرص الحكومات في المجتمعات المتقدمة على إنشاء المتاحف ، وتبذل فيها الأموال ، وتوظف لها الخبرات ، وتفتح الأبواب للأفراد والجهات الأهلية ؛ كي تنشئ متاحف فنية ، أو علمية ، أو مهنية ؛ كمتاحف الرسم ، ومتاحف الشمع ، ومتاحف السيارات ، ومتاحف الزهور ، ومتاحف التراث الشعبي ، وغيرها .

وقد ظهرت في أوربا وأمريكا متاحف أهلية كثيرة ، أنشأها أفراد أو شركات ، تخصصت في فنون ونشاطات محددة ، ونجح معظمها في اجتذاب الزائرين من مواطنيهم ، ومن السائحين ، بفضل السياسات (التسويقية) البارعة ، والوعي الحضاري المتزايد بأهمية تلك المتاحف ، حتى لتجد زيارتها في برامج إجازات العائلات ورحلاتهم ، وتجد ربَّ الأسرة حريصًا على أن يُطْلِع أفراد عائلته على محتويات تلك المتاحف ، لكونها ثقافة سريعة الفهم ، تترسخ في الذاكرة ، وبخاصة ذاكرة اليافعين والشبان .

ولا يقل حرص الحكومات في معظم مجتمعاتنا العربية والإسلامية على إنشاء المتاحف والعناية بها عن تلك المجتمعات ، فما من عاصمة أو مدينة كبرى إلا وفيها متاحف أنشأتها الدولة لتحمل رسالة تراثية ووطنية إلى الزائرين ، ولتظهر صلة الحاضر بالماضي ، والارتباط الدائم بالجذور .

غير أن المتاحف الأهلية في هذه المجتمعات قليلة - بل ونادرة - تعد على الأصابع ، فباستثناء مصر ولبنان ، لا نجد متاحف أهلية ذات شأن ، وربما يكون السبب في ذلك ، التكلفة العالية للمتحف ، وصعوبة الحصول على مقتنيات متميزة تجعله يجتذب الزائرين ، فالمقتنيات الأثرية القديمة محظورة على القطاع الخاص في معظم مجتمعاتنا ، وعدم تسليمها للجهات الرسمية في حال

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

اكتشافها جريمة يعاقب عليها القانون ، ونقلها أو تسريبها خارج البلاد لا يقل عن تهريب الأسلحة أو المخدرات ، لذلك لا يمكن - عمليًا - إنشاء متحف يضم آثارًا قديمة ، حتى ولو بالشراء الشرعي الصحيح .

أما المتاحف الأخرى ؛ كمتاحف الفنون والتراث الشعبي ، والنباتات والزهور ، والصناعات ، وغيرها من الأنشطة الإبداعية ، فمن الممكن إنشاؤها ، غير أن ضعف الوعي بأهميتها يجعل المترددين عليها فئة قليلة من المختصين أو الهواة ، ويجعلها مغامرة مادية خطيرة ، يزهد فيها رجال الأعمال - وهم القادرون على تكاليف إنشائها وتشغيلها - وتنصرف عنها الشركات الاستثمارية ؛ لعدم جدواها اقتصاديًا ، وفي هذه الظروف ؛ **فإن العامل الوحيد الذي يمكن أن يدفع فردًا أو جهة غير رسمية لإنشاء متحف أهلي خاص هو العامل النفسي** ، الذي يبدأ ميلاً وانجذابًا ، ثم ينمو ويتعاظم ، ويصبح هوى وعشقًا ، لا يعبأ بحسابات الربح والخسارة ، بل يصبح رسالة يبذل فيها صاحبها الجهد والمال لينهض بها ، ويوصلها إلى أكبر عدد من الناس .

لذا - وخلافًا لقاعدة ندرة المتاحف الأهلية في مجتمعاتنا العربية والإسلامية - تبرز المتاحف الأهلية في المدينة المنورة ظاهرة متميزة ، ومفاجئة لكل من يسمع بها ؛ متميزة لأنها مغامرات فردية جريئة ، ومفاجئة لأنها بلا دعاية ، وغائبة عن الإعلام ، فلا يعرفها إلا المتصلون بأصحابها ، والقليلون الذين وصلتهم أخبارها بشكل أو بآخر .

وربما يستكثر بعضهم عليها مصطلح «المتحف» ، قياسًا على المتاحف المشهورة في العواصم العربية والعالمية ، غير أن من عرف المتاحف الخاصة ، وعرف الظروف الصعبة التي تحيط بها في مجتمعاتنا ، لن يبخل عليها بهذا المصطلح ، وبخاصة إذا وضع في حسبانه اجتهاد أصحابها المتواصل في تطويرها ، والرسالة الثقافية الكبيرة التي تحملها .

وقد رصدتُ خلال بحثي عن الظواهر الثقافية في المدينة المنورة أربعة متاحف أهليِّة ، ولقيت أصحابها ، ودار بيني وبينهم حوار طويل مسجل ؛ عن الدوافع التي أدخلتهم في هذه المغامرة ، ومعاناتهم فيها ، وتطلعاتهم المستقبلية ، ورأيت من خلال الحوار والمشاهدة ظاهرة ثقافية متميزة ؛ كيفًا وكمًا ، ولعلها واحدة من خصوصيات المدينة المنورة وأهلها .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

هذه المتاحف الأربعة بدايات خصيبة واعدة لكيان كبير ، يضم الكثير من تراث المدينة المنورة القريب ؛ في جوانبه الشعبية ، والعمرانية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ؛ فالغراس الفتية الناشئة اليوم ، تصبح أشجارًا كبيرة وارفة الظلال في غد غير بعيد إن شاء الله .

وسوف أعرض للقارئ في الصفحات التالية قصة كل مُتْحَف من هذه المتاحف الأربعة ، وخلاصة حواري مع منشئه ، وبعض اللقطات لمحتوياته .

مُتْحَف الشيخ سلامة الجهني :

أكبر المتاحف ، الأهلية وأكثرها ازدحامًا بالمقتنيات التراثية ، يقع هذا المُتْحَفُ في الجهة الشمالية الغربية من المدينة المنورة ، على بعد أربعة عشر كيلومترًا تقريبًا من المسجد النبوي ، في منطقة سكنية متطرفة ، وفي مبنى كبير للمناسبات ، يعد من أكبر قصور الأفراح - إن لم يكن أكبرها - في المدينة المنورة ، وفي ركنه الجنوبي الغربي لوحة كبيرة ، تقول عباراتها : « مرحبًا بكم في متحف قمة المدينة » ، وفي ركن عُلْوي من مبنى داخل سور القصر

لوحة أخرى تقول : متحف قمة المدينة لعرض التراث القديم بأنواعه ، أسسه الشيخ سلامة رشدان الجهني ، وتحت اللوحة مشهد نموذجي لجزء من حياة

البادية : بدوي في ثيابه التقليدية ، وجمل ، وحصان ، ومباخر ، وبعض وسائل الحياة اليومية في البادية .

يشغل مبنى هذا المتحف الخاص زاوية داخلية من سور القصر ، ويشعرك بابه الخشبي أنك ستدخل مكانًا تراثيًا ؛ فقد صنع ببساطة أبواب البيوت الريفية ، ووضعت عليه زخارف أكثر بساطة ، لا تتعدى قضبانًا من الخشب ، مُثْبَتَة على صورة زوايا متقابلة ، أو بالمصطلح الهندسي على (شكل معين) ، ويتكون المبنى نفسه من صالتين متعامدتين على هيئة زاوية قائمة ، تمتد الأولى من الشرق إلى الغرب ، والثانية من الجنوب إلى الشمال ، وتنفتح عند التقاء نقطتي التعامد لتُكَوِّن صالة واسعة .

يبدأ المتحف بمدخل ، فيه مكتب الاستقبال ، وموظف يرحب بك ببشاشة ، وسرعان ما تنسى أنه مكتب استقبال ؛ إذ تتزاحم فيه المعروضات لتشغل جدرانه الثلاثة ، وأرضه ، وحول المكتب الصغير ، وعلى السقف ، وتتنوع المعروضات كأنها خلاصة لمضمون المتحف ، حيث تجد أدوات طبخ منزلية ، إلى جانبها حاكي قديم ، وصندوق خشبي مما تُخَزَّن فيه الثياب ، وباب خشبي ، يدلك دهانه على أنه كان لبيت قديم جيد ، وأباريق شاي ، وبعض الأقفال القديمة ، بينها قفل متميز ، يحدثك المضيف عن براعة صنعه التي تفوق تقنية الأقفال الحديثة ، وقد غطي سطحه النحاسي الملفوف ببعض الزخارف المحفورة ، فلا يخطئ الظن أنه كان قفلاً لبيت موسر ، أو دكان صائغ .

وتجتمع في هذا « الملخص » الافتتاحي للمتحف مقتنيات خشبية ، وأخرى حجرية ، ومكواة قديمة تسخن بالفحم المحترق ، وميزان صغير ذو كفتين معلقتين ، وطوابع وعملة قديمة ، وحلي امرأة من القرن الماضي ؛ مجموعة واسعة ، تحتار العين في التنقل بينها ، ويحتار الذهن في الجمع بين دلالاتها ، سوى أن يردد ما كتب في اللوحة : « تراث قديم بأنواعه » .

يلي مكتب الاستقبال صالة طويلة ، قسمت إلى أقسام ، تشبه الغرف الصغيرة ، كل واحدة بثلاثة جدران ، وعلى الجدران خزائن خشبية بواجهات زجاجية ، تبدأ على ارتفاع ثلاثة أرباع المتر ، وتعلو أكثر من متر ، وفي الفراغ الذي تحتها تتجمع مقتنيات عدة ، بعضها على مناضد صغيرة ، وبعضها على الأرض ، كما تعلو الخزانة مقتنيات أخرى ، مثبتة على الجدران مباشرة ، أو على رفٍّ مفتوح .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في الخزانة الأولى : مجموعة أدوات منزلية نحاسية ، مما في البيوت المتوسطة الغنى ، وعلى الأرض قدور مختلفة الأحجام ، كأنها رفعت لتوها عن الأثافي ، فقد كَسَا قعرَهَا وجدرانَها إلى ما فوق منتصفها سواد الدخان ، وعلى رفٍّ صغير فوق القدور الزند الذي تشعل به النار منذ قرون طويلة ، وفي الركن مرآة مزخرفة ، وفوق الخزانة مجموعة مسدسات قديمة ، تحشى بالبارود ، وتماثيل صغيرة .

وفي غرفة تالية ؛ تتوالى دِلال القهوة بأنواعها وأحجامها ، على رفوف خزانة عريضة ، وفي الجدار التالي تصطف (بنادق) من أنواع مختلفة ، وأطوال متفاوتة ، عُمُر أحدثها يزيد على القرن ، وفي غرفة تالية مجموعة أباريق فضية ونحاسية أنيقة ، يبدو أنها كانت تستخدم في بيوت الأغنياء .

وفي خزانة مقابلة مجموعة أوان منزلية نحاسية ، لا تخلو من زخارف على سطحها الخارجي ، بعضها يستخدم آنية طعام ، كالصحون والصواني والمغارف ، وبعضها الآخر للشرب والاستحمام ، وعلى الأرض تصطف مجموعة مكاييل خشبية ، كان يُكال بها أنواع مختلفة من الحبوب .

وفي غرفة تالية ؛ تتكرر الأسلحة بأنواعها وأحجامها المختلفة ؛ من مسدسات طويلة ، و (بنادق) متفاوتة ، وتحتها مجموعة من (مكائن) الخياطة في صناعتها الأولى ، التي لا يقل عمرها عن قرن تقريبًا .

واللافت للنظر في مقتنيات هذه الغرفة ؛ مجموعة أدوات منزلية خشبية ، كانت تستعمل في البادية ، وهي محفورة من جذوع متوسطة الحجم ، خفيفة الوزن ، وشديدة التماسك ، لم تظهر عليها أية تشققات رغم قدمها ، ويشرح لك المضيف المرافق أهميتها للعائلة البدوية ؛ فواحدة من هذه الآنية خاصة بالحليب الذي يؤخذ من ضرع الناقة ، وأخرى للعجين ، وثالثة لحفظ أنواع معينة من الحبوب ، وأخرى للسوائل ، أو الطعام المطبوخ ، وهكذا تلبي هذه الآنية حاجة ربة الخيمة ، ولا

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يصعب عليها نقلها عندما تنتجع القبيلة مرعى آخر ، فقد جعلت أحجامها متوالية ، لتنجمع واحدة داخل الأخرى كأنها قطعة واحدة .

وفي الساحة المكونة من تَجَمُّع الصالتين المتعامدتين ؛ مجموعة متوالية من الخزانات ذات الواجهات الزجاجية ، وخزانات أخرى (كالمناضد) ، تقف على قوائم ترتفع أقل من متر ، وقطع على الأرض ، أو مستندة إلى الجدار ، وتتزاحم المقتنيات ، حتى ليشعر المرء أنه في مجمع ضخم للمقتنيات التراثية ، وتتكرر الأسلحة ، والآنية ، والأباريق ، بينما تتربع مجموعات كبيرة وكثيرة من الحلي ، وقد صُفَّت حسب مواضع لبسها ؛ فالأساور الفضية العريضة تشغل أكثر من ركن وخزانة ، يرى المدقق فيها أشكالاً متفاوتة من الزخرفة اليسيرة والمتداخلة ، والخلاخيل التي كانت تزين أرجل بعض النساء تتعدد أشكالها ولبعضها - أيضًا - ما يشبه الأجراس المغلقة ، ولبعضها الآخر رقائق تشبه الدراهم الصغيرة .

وفي جزء آخر من الجدران ؛ مجموعة كبيرة من العقود والقلائد ، أكثرها من الفضة الخالصة ، التي اكتسى لونها بدُكْنَة تحكي مرور السنين الطوال عليها ، وتتجاور في بعضها القطع الفضية مع قطع صغيرة من أحجار كريمة ملونة ، وبعضها

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

دقيق ناعم ، وبعضها الآخر كثيف كثير القطع ، كأنما صنع لامرأة جزلة لينتشر فوق صدرها الواسع .

وفي جزء علوي من الجدار ؛ ثبتت مجموعة من الثياب التي كان يلبسها رجل البادية ، أحدها ثوب ذو أكمام متميزة ، تعادل سعتها سعة الثوب نفسه ، كان يلبس لمناسبات معينة .

وفي جانب آخر ؛ مجموعة من ثياب المرأة البدوية تزينه زخارف من خيوط القصب الذهبية والفضية ، ويبدو أنها من ثياب الأعراس والحفلات ، وعلى الأرض مجسم بلا رأس ، لُفَّت عليه ثياب كان المرأة البدوية تظهر فيه .

والحق أن ميسم الحياة البدوية يسود هذه الصالة ؛ من السلاح ، إلى الثياب ، مرورًا بالهودج الخشبي ، وأنواع البسط المصنوعة من وبر الإبل وصوف الأغنام .

وفي وسط الساحة ، وعلى امتدادها بين الشمال والجنوب ؛ الخزائن الأرضية التي تجمع نماذج من المخطوطات والوثائق ؛ فهناك مجموعة من الكتب الفقهية المكتوبة بخط حسن ، بعضها ملون ، فيه كتابات بالحبر الأسود ، وأخرى بالأحمر ، ورأيت في إحداها دوائر يدخلها اللون الأزرق ، لم تغيره السنون الطويلة التي مرت عليه .

ويلفت النظر في هذه الوثائق ؛ لفافة كبيرة - تكاد تؤلف وحدها كتابًا - وهي شجرة أنساب ، كتبت على مراحل ، عليها أختام وتوقيعات كثيرة ، تظهر طول المدة الزمنية التي تمتد فيها الأنساب ، وكثرة الفروع التي سجلت فيها ، ويروي المضيف أن شجرة النسب هذه تضم أسماء عدد من الأنبياء ، ثم من ولد من أبنائهم وأحفادهم ، حتى عهد الدولة العثمانية ، والوثيقة تحتاج إلى دراسة متأنية ، يجب أن يتوافر عليها باحث محقق .

وهناك وثائق صغيرة ، تضم حجج استحكامات ومبايعات ، ومحاضر صلح ، وغيرها .

وتطول الجولة في الصالة الطويلة الواسعة إذا وقفنا ندقق في جدرانها وأرضها وسُقُفَها ، فما من جزء إلا وعلق فيه مقتنى تراثي ، قريب أو بعيد ؛ أما المقتنيات القريبة العهد ، فتمثلها مجموعة الساعات المنبهة ، والهواتف اليدوية ، وأجهزة مذياع

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

خشبية مختلفة الأحجام ، وأخرى صغيرة ، تعد من الجيل الأول للمذياع الذي يعمل (ببطاريات) صغيرة ، ولوحات سيارات مختلفة من الجيل المبكر للسيارات في المدينة ، ومجموعة إنارة ، تبدأ بالمصابيح الزجاجية ، وتصل إلى الجهاز الذي يعمل بـ (الكاز) ، ويسميه أهل المدينة (الألتريك) ، وهو الذي سبق التيار الكهربائي مباشرة ، وتكثر في المعرض نماذجه وقطع تبديله ، فهناك مجموعة من الرؤوس الفخارية التي تحمل كيس التوهج (القميص) ، وهناك قطع صغيرة مفككة ، تحسب أنك في محل صيانة أو بيع قطع غيار لهذا الجهاز ، وهناك موقد (الكيروسين) القديم ، الذي كان سيد المطبخ بعد الأثاث ، وظل مستعملاً - وربما ما زال في بعض الأرياف - إلى أن حلت محله مواقد الغاز والكهرباء المعاصرة .

أما المقتنيات الأكثر بعدًا ؛ فهي الطواحين الحجرية بأحجام مختلفة ، والأواني الخشبية ، وأنواع السيوف ، وقرون الغزلان ، وجلود بعض الحيوانات التي اصطادها الصيادون وحفظوا جلودها ، وبعض حيوانات الريف والبادية المحنطة ؛ كابن آوى ،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والثعابين والصقور ، ورؤوس الغزلان ، فضلاً عن المراوح اليدوية المشغولة من سعف النخل ، ومفرش الطعام ، وبعض السلال العريضة .

وفي خزانة واقفة أخرى ؛ مجموعة من الدنانير القديمة وأجزائها ، تختلف عهودها ؛ من العهد العباسي إلى آخر العهد العثماني ، وإلى جانبها خزانة أخرى لمجموعة من العملات الورقية ، متنوعة تنوعًا شديدًا ومحيرًا ؛ ففيها العربي ، والفارسي ، والتركي ، حتى لتظن أنها خزانة صراف قرب المسجد النبوي ، يستقبل النقود من الوافدين من كل فج عميق ، وهناك مجموعة خاصة للعملات التي صدرت في السعودية ، منذ بدايتها حتى الآن .

ومما يلفت النظر في هذه الصالة ؛ مجموعة صور قديمة لبيوت وأحياء المدينة المنورة ، زالت في التطورات العمرانية الأخيرة ، وبعض هذه الصور نسخ لصور (فوتوغرافية) نادرة ، التقطها رحالة وحجاج ، جاؤوا قبل مدة تقارب القرن ، وبعضها منسوخ من كتب الرحالة الغربيين ، ومكبر بعناية ، وصور لزيارة بعض الملوك والرؤساء للمدينة قبل عدة عقود ، ولوحة كبيرة تحمل عنوانًا يقول : (من ذاكرة التاريخ) ، تتضمن لقطاتٍ لمعالم عمرانية مختلفة ، أصبحت - حقًا - من ذاكرة التاريخ ، وبعضَ كتب المدينة ، وصورًا للمسجد النبوي قبل التوسعات السعودية ، وفي الصالة مِبْخَرة قديمة ضخمة ، وعلى أحد الجدران يستند باب خشبي قديم من أبواب البيوت الريفية ، وتتدلى من السقف مجموعة كبيرة من (الفوانيس) وأجهزة الإنارة ما قبل الكهرباء .

وهكذا تتوالى المقتنيات وتتزاحم ، وقد وضع تحت معظمها ملصقات صغيرة ، كتب عليها اسم المقتنى أو نوعه دون أي شرح ، ويحس المتجول - لكثرة ما يراه من قطع متوالية ومتداخلة أحيانًا في موضوعاتها ودلالاتها - أنه في مجمع لعدة متاحف ، وليس في متحف واحد ، وأن التراث الشعبي المعروض تجتمع فيه مقتنيات البادية والحاضرة ، وإن كانت الغلبة للبادية ، وأن التصنيف الأولي لهذه المقتنيات أتاح الفرصة للتكرار والتداخل والوفرة .

وتجد تفسيرًا لهذه الوفرة المقصودة في حديث صاحب المتحف ، وتأكيده على أن تعلقه بالتراث الشعبي يدفعه إلى اقتناء المزيد منه .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ففي حوار طويل مسجل معه حول سيرته الذاتية وسيرة المتحف ، روى لي : أنه ولد سنة ١٣٥٨هـ في منطقة ينبع النخل ، ونشأ فيها ، حيث كانت أسرته تنتقل من مكان لآخر لترعى إبلها وماشيتها ، فقد كان « الحلال » - كما يسمون الماشية في البادية - المصدر الرئيسي للرزق ، يضاف إليه في الريف الخصب - وينبع واحد منه - الزراعة ، وبخاصة زراعة النخيل ، وقد تجمع الأسرة أو القبيلة بين المصدرين في وقت واحد ، فتنتجع المراعي والمياه مدة من الزمن ، وتلازم نخلها وقت حاجته إليهم ، للعناية به أو لجني رطبه وتموره .

وكانت أسرة الشيخ سلامة من هذه الفئة ، تنقلت في المنطقة لترعى ماشيتها حينًا ، وعملت في الزراعة والنخيل حينًا آخر ، وكان لوالده خبرة في المداواة بالأعشاب ، وهو الطب السائد - بل الوحيد - في البادية آنئذ .

وقد تَعَلَّم على يد أحد الشيوخ قراءة القرآن والهجاء ، وانتهى تطوافه مع العائلة ليستقر في المدينة المنورة عام ١٣٧٥هـ ، وكانت لهذه النقلة من حياة البادية والريف ، إلى حياة المدينة آثار إيجابية في عصاميته واهتمامه بتطوير

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نفسه ، والتواؤم مع البيئة الجديدة ، وكانت نقلته واسعة ، فقد تحول من حياة الريف والرعي ، إلى مستحدثات المدينة مباشرة ، فعمل في محل لتصليح الدراجات ، وما لبث أن اكتسب الخبرة ، وافتتح محلاً مستقلاً ، ثم بدأ الدراسة في المدارس الليلية ، واستفاد مما تعلمه من والده في المداواة بالأعشاب ، وبدأ يصف الوصفات لمن حوله ، حتى عُرف بأنه من الذين يطببون بالطب الشعبي ، ولهذا الطب رواده حتى وقتنا الحاضر .

ويروي أنه منذ عام ١٣٧٨هـ بدأ يعالج المرضى ، وكان يذهب إليهم ، ويصف لهم الأعشاب التي يشترونها من العطارين ، أو يزودهم بها ، وتحسنت أحواله العلمية والمهنية والاقتصادية ، فكان يتدرج في الصفوف الانتقالية ، ويقرأ ما يتيحه له الوقت مساء ، ويعمل في الدراجات والطب الشعبي صباحًا .

ثم انتقل من مهنته ليعمل في المكتب الصحي عند باب السلام ، وساعده هذا العمل على تطوير خبرته ، كما زودته قراءته في كتب الطب الشعبي والأعشاب بالمزيد منها ، وتوقفت دراسته عند نهاية المرحلة المتوسطة ، وتحولت إلى قراءات في الكتب التي يشتريها ، واهتم بجمع الأعشاب النادرة ، فكان يخرج إلى البر ، ويتسلق الجبال ليصل إليها ، واستفاد من كتب الأطباء العرب القدامى ، ووفّق في تشخيص أمراض مراجعيه ، وبدأت شهرته تذيع في المدينة ، وصار المرضى يقصدونه في بيته ، وعندما ازداد عدد زبائنه افتتح عيادة خاصة ، وأخذ يعالج فيها مرضاه ، مستخدمًا مختلف أساليب الطب الشعبي ؛ من الأعشاب ، إلى الكي والفصد ، وقد نفع الله بعلاجه الكثيرين ، ونمت شهرته ، ويعد الآن واحدًا من المقصودين من داخل المدينة وخارجها ، حتى من بعض دول الخليج .

وأما اهتمامه بالتراث فقد بدأ - كما روى لي - قبل ثلاث وأربعين سنة ، وكان يلحظ تطور الحياة التي انغمر فيها ، وتطور الأدوات المستخدمة يومًا بعد يوم ، وكان يرى القديم يُهجر ويُهمل تمامًا بظهور البدائل الحديثة ، ويحزنه أن يجد كل شيء يرمى في الشوارع مع المخلفات ، وخطر له أن الجيل الذي ينشأ سيكون بعيدًا كل البعد عن النمط القديم ، بل سيكون جاهلاً به تمامًا ، وعَزَّ عليه - وهو الذي عاش المراحل المتوالية ، وشهد التحولات - أن يحدث

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

انقطاع كامل بين الماضي القريب والحاضر ، فقرر أن يجمع نماذج منه ، وأن يبقيه حيًا ، ولو بالمشاهدة ، ليراه الجيل الجديد ، وبدأ باقتناء النماذج ، وأكثر منها ، لزهد أصحابها فيها ، وعندما يجد شيئًا ذا قيمة ، يسارع لشرائه ، مهما كان ثمنه ، وساعدته أحواله المادية المتحسنة في تنمية هذه الهواية ، حتى تجمعت لديه مقتنيات كثيرة ، يغص بها المكان الذي كان يضعه فيه ، وكان من أكثر ما شد اهتمامه ؛ الكتب المخطوطة ، ومخطوطات القرآن الكريم بخاصة ، وكانت لدى بعض الأسر والأفراد ، وكذلك الكتب والصكوك والمبايعات ، ومحاضر الصلح ، وكان يعجب كل العجب بديباجة بعض الصكوك ، فقد كان لها - كما يقول - أساليب جميلة ، تمتلئ بالعبارات البليغة ، واهتم - بصورة خاصة - بالصكوك والوثائق التي كتبت في البادية ، فقد كانت أساليبهم قديمة متوارثة ، وكانت وثائقهم تكتب بحبر يصنعونه بأنفسهم من شجر السمر الأسود ، ويسمونه (الدوم) ، حيث يستخرجون نسيجه الداخلي ذا اللون الأحمر القاني ، ويمزجونه بقهوة محروقة ومطحونة ، فيصير حبرًا قويًا ثابتًا ، تشهد له الوثائق التي كتبت به ، والتي يعرضها الشيخ سلامة في مُتْحَفِهِ .

ولا شك أن نشأته في بيئة البادية ، ومعايشته لها فترة من شبابه ، جعلت له مكانة متميزة في نفسه ، ودفعته إلى المحافظة على جميع مظاهرها ، ووسائل المعيشة فيها ، ولعل هذا ما يفسر النموذج الذي وضعه على باب متحفه ، نموذج البيت البدوي ، بخيمته وجِمَاله وقهوته ، وقد روى لي - بغير قليل من المتعة - ذكريات كثيرة عن حياته في البادية ، والأدوات الخشبية والنحاسية والجلدية ، التي كانت جزءًا أساسيًا من مستلزماتها ؛ كالقدح (وعاء الماء) ، والمحلب (وعاء الحليب) ، والهنامة (وعاء السمن) ، والسماطي (وعاء العسل) ، والمتعة (قصعة الطعام) ، وقائمة طويلة ، تعادل محتويات رف طويل من الأدوات المنزلية المستخدمة اليوم ، تلبي حاجة ابن البادية في طعامه وشرابه ، وتحَدَّث طويلاً عن الزند الذي أفرد له مكانًا متميزًا في مقدمة متحفه ، حيث كان رفيق البدوي ؛ يحرص عليه حرصًا شديدًا ، وربما اشتراه بشاة أو شاتين ، وهو

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

نوع من حجر الصوان ، يعالجه شخص متخصص في صنعه ، حيث يغليه في ماء وملح وشيء من شعر الغنم حتى يتوهج ويصبح مشحونًا بالشرر يتطاير منه عند احتكاكه بشيء صلب .

وقد عاصر الشيخ سلامة في طفولته وقسط من شبابه مرحلة الزند ، واستخدمه ، وأدرك أهميته ، وأراد أن ينقل للجيل التالي صورة موثقة عنه ، وكذلك البندقية التي يسميها (رفيق البدوي الدائم) ، عرف أنواعها من « أم الفتيل » ، إلى « الهندية » وحتى دخول البنادق الحديثة ... وعندما انتقل إلى حياة المدينة ، أصبحت رفقة السلاح ذكرى في الأذهان ، فضمها إلى مقتنياته ، وأكثر من جمعها بأصنافها المتعددة ، حتى ليحسب المرء أنه ما من نوع عرفته البادية إلا واقتنى نموذجًا أو أكثر منه ، وتجمعت المقتنيات ، وتراكمت ، فقد كانت هواية تزداد مع مرور الوقت وتطور أحوال صاحبها ، بخاصة بعد أن تفرغ للطب الشعبي وإدارة أعماله الخاصة .

وفي عام ١٤١٧هـ - وما زالت الرواية لصاحب المتحف - أقام مشروعًا استثماريًا ، وهو قصر الأفراح الكبير ، الذي أطلق عليه اسم (قصر القمة) ،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وبنى في ركنه الجنوبي الغربي صالة المتحف ، ليكون أول متحف خاص ومفتوح للزوار ، وكذلك ليحفظ هذا التراث الذي عاش جزءًا منه ، وأحبه ، وعَزَّ عليه أن يغيب عن ذاكرة الأجيال التي لم تشهده .

ويشير الشيخ سلامة إلى جانب مهم ، كان له أثر في إنشائه المتحف ، وهو : اهتمام الجهات الرسمية بالتراث ، والوعي الذي تنشره بين المواطنين للعناية به ، بدءًا بالشعر الشعبي ، الذي وجد رعاية من بعض الصحف والمجلات ، ووصولاً إلى العناية بالأبنية القديمة والآثار .

ويشيد الشيخ سلامة بما لقيه من تشجيع المسؤولين ، الذين زاروا متحفه ، وفي مقدمتهم صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبد العزيز ، أمير منطقة المدينة المنورة ، الذي سجَّل كلمة ضافية في سجل الزوار بالمتحف ، وكذلك عدد من المسؤولين ومندوبي الصحف والمجلات ، ووسائل الإعلام الأخرى ، الذين لم يتوانوا في الكتابة عن المتحف ، والثناء على الخطوة الرائدة ، التي قام بها صاحبه ، والجهود التي بذلها لإخراجه إلى حيز الواقع .

ويتفاءل بمستقبل المتحف ، لكثرة ما لقيه من اهتمام وتشجيع وإقبال الأهالي عليه ، ويدعو الجيل الجديد - جيل الشباب وطلاب المرحلة الثانوية والجامعات - إلى زيارته ، ليطلعوا على حياة الجيل الذي رعاهم ، أو رعى آباءهم ، ويتصلوا بتراثهم ، ويرى أن زيارتهم ستكون زيادة في ثقافتهم ، وستزودهم بمعلومات قد لا يجدونها في الكتب .

ويتمنى الشيخ سلامة ؛ أن يقترب بمتحفه من قلب المدينة ، وأن يكون متاحًا لأهلها وزائريها ، الذي يشق عليهم الوصول إليه ، وربما لا يعرفون شيئًا عنه ، وقد تقدم بطلب إلى الجهات الرسمية لمنحه أرضًا داخل المدينة ، وتطوع ببنائها من ماله الخاص ، لتكون متحفاً للتراث الشعبي ، يملؤه بمعروضاته ، كما أنه يتمنى أن يعطى جناحًا في المتحف الكبير ، الذي سيفتتح في محطة السكة الحديدية ، ليجعله هدية لأهل المدينة .

أو (دار المدينة المنورة للتراث العمراني) ، كما سماها منشئها ، وكما يتطلَّع أن تكون حين تكاملها ...

مُتْحَف الدكتور عبد العزيز كعكي :

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يقع متحف الدكتور عبد العزيز كعكي في منطقة تُسْلِمُ فيها البيوت القديمة مواقعها على استحياء للعمارة الحديثة ، وفي حارة داخلية تتوسط طريقي قباء الطالع والنازل ، حيث بقايا بيوت قديمة ، ربما يرجع أقدمها إلى قرابة قرن ، تحيط بها عمارات أنشئت قبل عقدين أو ثلاثة على الأكثر ، والمتحف نفسه ، أو (ورشة عمل المتحف) - كما يسميها صاحبها - بيت قديم من طابق واحد ، فيه ثلاث غرف ؛ الأولى تشغلها إدارة المتحف ، ورغم أنها « مكتب إداري » فقد غَصَّتْ باللوحات على جدرانها ، وتزاحمت في جوانبها قطع خشبية وحجرية تنتظر مكانها في العرض ، والغرفتان الباقيتان لمقتنيات مختلفة ، وفي الوسط ساحة مربعة الشكل ، مسقوفة ، كُسِيَ سقفها من الداخل بما يسمى السُّقف المستعارة ، ويقوم وسطها مضلعان من الزجاج و (الألمنيوم) ، يساعدان في حمل السَّقف من جهة ، ويكونان منظرًا جماليًا من جهة أخرى ، وفي داخلها بعض النباتات ونافورة مياه .

وعلى امتداد جدران البيت المربع تتزاحم لوحات تحمل صورًا (فوتوغرافية) مكبرة لعدد كبير من معالم المدينة المنورة التي زالت ؛ أحواش ، وبيوت ، ودكاكين ، وميادين ، فضلاً عن وجود صور المسجد النبوي قبل التوسعة السعودية الأولى وبعدها ، ومسجد قباء ، ومحطة السكة الحديدية خلال فترة تشغيلها ، وبعض المعالم الطبيعية ؛ كجبل أُحُد ، وجبل عَيْر ، وثَوْر ، ووادي العقيق ، وعدد من الخرائط والمساقط لأبنية زالت .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وحول المضلعين الشفافين اصطفت مجموعة من المكاييل التي كانت مستخدمة في المدينة ، وما زال بعضها مستخدمًا لدى بائعي الحبوب ، ومجموعة دلال القهوة العربية ، ومجموعة لأدوات السقاية ، ومجموعة للأواني الفخارية والخزفية ، وأمام المكتب تتجمع قطع خشبية وضعت فوق بعضها البعض في ازدحام مرهق ، وسنحت الفرصة لبعض القطع أن تستند وحدها إلى أسفل الجدار ؛ لتظهر تفصيلات رسومها وتشكيلها ، وهي قطع مأخوذة من شبابيك ومشربيات كانت تزين بيوت المدينة المنورة قبل أكثر من قرن .

وفي الركن الشرقي الجنوبي بعض أرائك يستريح فيها الضيوف والزوار ، وخلف المضلعين الزجاجيين على امتداد معظم مساحة البيت يتربع **مجسم كبير**

للمدينة المنورة ، يرتفع عن الأرض قرابة ستين سنتيمترًا ، ويحيط به إطار خشبي بني اللون ، يبلغ حجم المجسم ثلاثين مترًا مربعًا (٥×٦م) بقياس ١/٥٠٠ تقريبًا ، **يمثل المدينة المنورة في نهاية العهد العثماني** ، ويشمل مجموعة المزارع والبساتين المحيطة بها ، بدءًا من حرة واقم شرقًا ، وانتهاءً بوادي العقيق غربًا ، ومن بساتين العوالي جنوبًا إلى بساتين العيون شمالاً .

وتظهر المدينة على شكل كتل عمرانية متراصَّة وسط مجموعة كبيرة من مزارع النخيل المحيطة بها ، وتظهر فيها الطرق المؤدية إليها من جميع الجهات .

وقد سعى الدكتور عبد العزيز في هذا المجسم أن يظهر جميع المواقع التي كانت معروفة أواخر العهد العثماني ، وبخاصة البساتين والآبار ، والسور والأحواش ، والقلعة بأبراجها المتعددة ، واختار أن يصبغ الأسوار والقلعة وأبراجها باللون الأبيض ، لتبدو زاهية بين الأرضية الداكنة ، وخضرة البساتين ، بينما راوح دهن جميع الكتل العمرانية بين أربعة ألوان هادئة ، ليظهر تداخل البيوت المبنية بالحجارة السوداء مع البيوت المبنية باللبن الترابي ، والبيوت المطلية

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالجص والنورة ، ويحقق انطباعًا جماليًا يؤكد الدكتور عبد العزيز أنه كان صفة متميزة في النسيج العمراني للمدينة المنورة .

ويصرف المهندس عبد العزيز جُلَّ اهتمامه الآن لهذا المجسم ؛ لأنَّهُ يرى فيه تجمع العناصر العمرانية للمدينة المنورة ، في الوقت الذي يمثله المجسم ، ويرى فيه تحقق خصائصها الشكلية ، ودلالاتها المضمونية .

ولو أتيح لنا أن نصور المجسم بآلة تصوير صغيرة - كالتي تستخدم في الخدع السينمائية - لرأينا فيه مدينة حقيقية ، لا ينقصها إلا أهلها والعابرون وحركتهم فيها .

وقد نجح في تمثيل بعض الأسواق - وبخاصة أسواق الحطب والبرسيم - عندما وضع مجموعة من النباتات تمثل البضائع التي كانت تعرض فيها .

واهتم المهندس عبد العزيز كعكي بإظهار الأشكال الخارجية للأحواش والبيوت ، وحرص على تثبيت المشربيات فوق النوافذ بتصميمات عدة ، كما حرص على نشر القباب فوق الأسطح ، ويلحظ المشاهِد كثرتَها ، كما يلحظ انتشار كتل صغيرة فوق جميع أسطح البيوت ، تمثل غرف السطح ، وتدل على أنها كانت جزءًا من كل بيت .

وتنتشر بعض البساتين داخل المدينة ، كما تظهر بعض النخلات داخل عدد ضئيل من الأحواش ، ولعل أبرز ما يشد المشاهد ؛ انسياب وادي أبي جيدة أو بطحان غير بعيد عن المسجد النبوي ، وفوقه عدد قليل من الجسور ، وقناطر ملتحمة مع السور من الجهتين الشمالية والجنوبية ، لتقوم بعملية التحصين ، وتكمل امتداد السور فوق الوادي .

أما المسجد النبوي فيظهر بمآذنه الخمس ، وبنائه « المجيدي » ، الذي يرجع إلى عام ١٢٧٧هـ ، وتلتصق به بعض المباني من الجهة الغربية (مبنى مدرسة قايتباي أو المحمودية) ، وتقوم المئذنة الخامسة عليها قرب باب الرحمة .

ومن خلال الشوارع الضيقة تظهر كتل صغيرة تمثل المشربيات التي كان يَفْتَنُّ أهل المدينة في زخرفتها ، ويمتد من الجهة الغربية شارع العينية بأعمدته المتميزة ، والتي استُلْهِمَتْ في تصميم مباني المنطقة المركزية حديثًا .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويظهر البقيع بالهيئة التي كان عليها ؛ من حيث الأسوار التي تحيط بها وتقسمها إلى بقيعين ؛ بقيع الغرقد ، وبقيع العَمَّات ، كما تظهر أعداد قليلة من القباب والقبور المتميزة أو المحاطة بسور منخفض من الحجارة ، ويبدو أن الدكتور كعكي لم يتوسع في تمثيل البقيع قبل العهد السعودي ، كما تظهر الصورة التي تعرضها إحدى لوحاته ، بسبب كثرة التفصيلات وغياب المعلومات الدقيقة عنها ، وتجنبًا لأي حرج قد يواجهه .

يحيط بالمجسم مجموعة من البطاقات ، مثبتة على الإطار الخشبي للمجسم ، سجلت عليها معلومات مختصرة ، وإحصاءات للمعالم العمرانية ؛ كالأحواش ، والأسواق ، والمدارس ، والكتاتيب ، والتكايا ، والمقابر ، والأفران ، والحمامات ، والأربطة ، ووضعت الأسماء التي كانت معروفة لكل مَعْلَم ، وتظهر على بعض البطاقات استدراكات وتغييرات ، حيث تستجد معلومات مغايرة لما سجل من قبل ، تسجل فوق السابقة أو بجانبها ، حيث يقوم الدكتور عبد العزيز منذ ثلاثة أشهر بتوثيق تفصيلي للمجسم ، يستضيف كل من يصل إليه من أهل المدينة ، الذين عاصروا تلك المعالم ، أو بقاياها ، ويتحاور معهم في موقعه ، وحجمه ، وتاريخ بنائه ، ومالكيه أو مستأجريه ، وقد أعد سجلاً توثيقيًا للزوار ، وخصص صفحة لكل زائر ، يسجل فيه معلومات وافية عنه ، ويضع في زاويتها صورته ، ثم يترك للزائر أن يسجل ملاحظاته وانطباعاته عما يراه ، وقد اطلعت على عدد من كتابات الزوار ، فوجدت في معظمها تسجيلاً لمشاعر الغبطة والسرور بالمجسم ، وإعجابًا بدقته ، وتقديرًا للجهود التي بذلها صاحبها في إخراجه ، ويبدو أن ملاحظات الاستدراك والتغيير كانت تؤخذ شِفاهًا وتُسْتَدْرَك إن تأكَّدت وأَجْمَعَ عليها أكثر من زائر .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد سجل بعضهم معلوماته عن المَعْلَم الذي عاصره ، أو ارتبطت به ذكرياته ، وليتهم أسهبوا في هذا الجانب ، لتصبح كتاباتهم تأريخًا عمرانيًا واجتماعيًا في وقت واحد .

ولم ينس الدكتور عبد العزيز أن يخصص سجلاً للنساء كبيرات السن ، اللواتي دعاهن للاطلاع على المجسم أيضًا ، واستفاد من ملاحظاتهن في تحديد بعض كتاتيب البنات ، التي اشتهرت في المدينة في ذلك الوقت ، كما استفاد من ذكرياتهن عن بعض الأحواش التي عِشْنَ فيها ، ولا شك أن عملية التوثيق هذه ستجعل المجسم أكثر دقة وتعبيرًا عن المدينة المنورة ، قبل تسعة عقود على الأقل .

وبدا خلف هذا المجسم الكبير مجسم صغير ، يبلغ حجمه ٢×١.٥م ، لمَّا يكتمل بعدُ ، يمثل مساحة ضخمة للمدينة المنورة ، تمتد من جبل عَيْر إلى جبل أُحُد ، بمقياس يبلغ أضعاف مقياس الحجم الكبير ١/٥٠٠٠ ، وتظهر الكتل العمرانية فيه على شكل قطع صغيرة وسط المزارع ، وقد غرست في جميع أنحاء المجسم أعواد تحمل أوراقًا كتب عليها اسم الموقع أو المَعْلَم .

ومن الواضح أن هذا المجسم سيعرض جميع المواقع والمعالم في المدينة المنورة وما حولها على امتداد العصور ؛ من العصر الجاهلي إلى أعتاب العصر الحديث ، وقد تأجل إنجازه حتى ينتهي العمل في المجسم الكبير وتوثيقه .

وفي زوايا المتحف أو (الورشة) مجموعات من الأحجار ، بعضها مأخوذ من أبنية قديمة أزيلت ، تظهر فيها بقايا أعمدة وتيجان وأقواس ، وبعض الحجارة المنحوتة التي تستخدم في بناء الجدران ، ولكل حجر من هذه المجموعة معلومة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يحدثك عنها الدكتور عبد العزيز ، ويشرح لك موقعها في البناء ، وتفصيلات رسومها ، والتشكيل النهائي الذي تستقر فيه ، والأدوات الخاصة بصنع منحنياتها وتجويفاتها ، ويتخلل الشرح عدد غير قليل من المصطلحات المهنية والهندسية ، التي تظهر لك أهمية هذا الحجر ، والدلالات الكثيرة التي يحملها .

أما صاحب المتحف الدكتور المهندس عبد العزيز بن عبد الرحمن كعكي ، فهو مهندس معماري ، ولد في المدينة المنورة عام ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م ، وتلقى دراسته حتى نهاية المرحلة الثانوية فيها ، ثم التحق بكلية الهندسة في جامعة الملك سعود بالرياض ، وتخرج فيها عام ١٤٠٣هـ ، وعين معيدًا فيها لمدة سنتين ، ثم انتقل للعمل في أمانة المدينة المنورة ، وتَسَلَّم مناصب عدة فيها ، آخرها رئيسًا لبرنامج تطوير المناطق المطلة على الطرق الرئيسية ، ومشرفًا على تخطيط المناطق العشوائية ، وكان قد حصل على الماجستير من كلية الهندسة بجامعة الأزهر عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، والدكتوراه من كلية (أدنبرة) للفنون بجامعة (هيبروت ون) في (اسكتلندا) ، عام ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .

أصدر عدة كتب وبحوثًا ، أهمها : المجموعة المصوَّرَة لأشهر معالم المدينة المنورة ، في ثلاث مجلدات من الحجم الكبير .

وقد نشرت مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة له عدة بحوث (انظر فهرس المجلة في السنتين الماضيتين ، من هذا العدد) .

ويتحدث عن تجربته ودوافعه لإنشاء هذا المتحف ، وتطلعاته المستقبلية فيقول :

« نشأت في بيت من بيوت المدينة القديمة في (حوش مَنَّاع) ، تتجمع فيه سمات تراثية عمرانية ، لفتت نظري في وقت مبكر الرواشين الخشبية ، السُّقُف المزخرفة ، فتحات التهوية ، توزع الغرف ، وصرت عندما أدخل بيتًا فيه زخارف أفضل أتأملها ، وأتساءل عنها ، وأتمنى وجودها عندنا ، وتحولت إلى (مشاغب) في البيت ؛ أُقَدِّم اقتراحات لإزالة جدار هنا ، وتعديل غرفة هناك ، وتوسيع شباك في جهة أخرى ، وارتبط هذا بإحساس جمالي أخذ ينمو داخلي ، ويُنَمِّي معه حب الرسم و (التشكيلات) الفنية الزخرفية .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعندما أنهيت دراستي الثانوية ؛ أراد والدي أن يدخلني (الطب) ، ولكنني لم أجد في نفسي تجاوبًا مع هذه المهنة ، فوجهني إلى الهندسة الإنشائية ، فدرست الفصل الأول ، فوجدتها دراسة جافة ، ولم أرتح لها ، ولفت نظري زملائي في الهندسة المعمارية يحملون لوحاتهم ، ويعملون في الرسومات ، وبدأت أتعرف على هذه الهندسة التي لم أكن أعرف عنها شيئًا من قبل ، ووجدت في نفسي ميلاً عظيمًا إليها ، بل وجدت كل ما أحبه فيها ، فاستأذنت والدي أن أتحول إليها ، وشرحت له كيف وجدت هواياتي مختزنة في موادها الدراسية التي تعرفت عليها بصورة أولية ، فوافقني .

درست العمارة بشغف ، وتفوَّقت بها ، وبدأت أفهم جماليات التصميم ، بعد أن كانت تذوقًا عامًا ، وتخرجت في الكلية بمعدل عال ، وعينت معيدًا فيها ، وأفدت من أساتذتي الذين نَمَّوا في حب التراث ، وازداد تعلقي بتراث المدينة ، وكانت مشاريعي العملية خلال سنوات الدراسة من عمارة المدينة المنورة القديمة ، وكذا مشروع التخرج .

وبعد سنتين ؛ طلبت والدتي أن أعود إلى المدينة لأكون قريبًا من العائلة ، وكنت أعد نفسي للالتحاق بقسم الدراسات العليا في كلية الهندسة بجامعة الأزهر ، وخلال زيارتي للمدينة عام ١٤٠٨هـ التقيت أمينها آنئذ المهندس عمر قاضي ، الذي عرض علي الانتقال إلى أمانة المدينة للعمل في أحد أقسامها ، ووجدت نفسي مشدودًا إلى هذا العرض ، فعدت إلى الرياض ، وطلبت نقل خدماتي إلى أمانة المدينة ، ووافقت الجامعة ، فانتقلت إلى المدينة ، وبدأت عملي في الأمانة ، وهنا بدأت نقطة تحول كبيرة في حياتي واهتماماتي العمرانية ، وهي التي أدت إلى ولادة مشروع المتحف والمركز .

كانت المدينة في مرحلة تغيير جذري ؛ فقد بدأت فيها هدميات واسعة حول الحرم ؛ لتنفيذ مشروع توسعة المسجد النبوي ، ولفتح شوارع وساحات جديدة ، وتبعها مشروع تطوير المنطقة المركزية المحيطة بالمسجد النبوي ، وتشمل المنطقة التي كانت داخل سور المدينة الأول كلها ، بل وتزيد عليها أحياء ومناطق في أكثر من جهة ، وهذا يعني إزالة منطقة قديمة واسعة ، مليئة بالأحواش والبيوت ،

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والمدارس والأربطة ، وبعض هذه الأبنية يعود إلى مئات السنين ، كما تقول الكتابات المنقوشة في واجهاتها ، أو على حجارة تذكارية فيها ، كما أن مئات المشربيات الخشبية التي صنعت في قرون متوالية ستزال ، وربما تسقط بين الأنقاض المتراكمة ، وأخليت تلك المناطق ، ونزلت أتجول في الأحياء الخاوية ، وأدخل البيوت ، التي بدأ تجار الأشياء المستخدمة يفكّكُونها ، وكان بعضها متهالكًا ، وبعضها يصعب فَكُّه دون تشويهه ، وهالني ما وجدته من تنوع عجيب في تلك المصنوعات ؛ أقرأ فيها فن قرون من الحضارة الإسلامية ، وأجيال متوالية من الصنَّاع المهرة ، وأرى (تشكيلات) لم يخطر ببالي أنها على ذلك القدر من دقة التصميم وبراعة الصنع والإعداد ، ووجدت أن أسلافنا اعتمدوا نظام (الوحدة الهندسية) ، وأنهم صنعوا من تواليها بطرق مختلفة (تشكيلات) جمالية رائعة ، وأن هناك مدارس ، لا مدرسة واحدة في تلك التصميمات ، وأنها جميعًا تحمل في أعماقها فلسفة تنبثق من رؤية إسلامية للحياة وللجمال ، ومن بواعث فنية مُشْرَبة بقيمة .

وباختصار ؛ وجدت أمامي تراثًا هندسيًا وجماليات إسلامية ، من الخسارة - إن لم يكن من الجريمة - ألا يوثق ويحفظ ، وجهودًا لأسلافنا ، من التفريط

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بحقهم ألا يعرفه جيلنا - فضلاً عن الأجيال التالية - فعزمت أن أكرِّس جهدي لهذا العمل الكبير ، وأن أجتهد - ما استطعت - لأنهض بما يوفقني الله إليه .

كانت الخطوة الأولى التي بدأت بها أن أصور ما سيهدم تصويرًا كاملاً ، يظهر كل حي ، وكل حوش ، وكل بيت جملة وتفصيلاً ، لأكوِّن (فيلمًا) يحمل مشهدًا متكاملاً لهذه البنية العمرانية الكبيرة ، ولأُظْهِر في هذا المشهد ما تختزنه من عناصر عمرانية كثيرة متداخلة ، وما تحمله من فنون هندسية ، وتصميمات بديعة ، وجماليات عالية ، ورغم قلة خبرتي بالتصوير استطعت أن آخذ لقطات كثيرة للبيوت والأحواش والأحياء ، وما فيها من مشربيات وشبابيك وأبواب ، وبجهد استطعت أن أصوِّر معظم المناطق قبل أن تدخلها الجرافات وأدوات الهدم الأخرى .

وكانت الخطوة الثانية : الحصول على نماذج من هذه التشكيلات قبل أن يستحوذ عليها تجار الأشياء المستعملة ، أو تسقط بين الركام .

وأخذت أسابق الزمن ، استأجرت نجارًا وعاملاً ، وطفت معهم في الشوارع الخالية ، أبحث عن التشكيلات المتنوعة ، وأطلب منهما تفكيك قطعة هنا ، وجزء هناك ، وكنت في بعض الأحيان أعمل أمام الجرافات ، ومع ضربات آلات الهدم الثقيلة لأحصل على جزء من مشربية خشبية متميزة ، ووحدة من (تشكيل) فني ، أو سقف ، وقد تجمع لدي - ولله الحمد - قدر واف من تلك النماذج ، وخزنتها في بيت العائلة ، وعكفت على دراستها .

وكانت هناك قطع سبقني إليها كثيرون ؛ مديرية الأوقاف بالمدينة ، ومركز أبحاث الحج ، الذي كان نشطًا في رصد التراث أيضًا ، والوصول إلى قطع أثرية متميزة ، فقد أحضر مركز أبحاث الحج (١٢) فرقة من جدة لرفع المباني والعناصر المهمة ، وعمل رفعًا مساحيًا للمساجد ، والحمامات ، والأربطة ، والأبنية المتميزة ، وأخذ صورًا ، وأنجز مساقط ورسومات كثيرة ، فكان عمله توثيقًا رائعًا .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكذلك كان بعض مندوبي الأوقاف يجمعون الحجارة المتميزة ، التي عليها كتابات ، أما أنا فكان اهتمامي منصبًا على الزخارف الخشبية والجبسية والحجرية ، فمثلاً : الطبق النجمي ذو الاثني عشر ضلعًا غير موجود ، ويعد من نوادر العالم ، وكانوا يقولون إنه موجود في محراب السيدة رقية في مصر ، وفي مبنى آخر من النوادر ، فوجئت عندما وجدته على جدار أحد البيوت القديمة ، في بيت أبي عزة ، مرسومًا بالجص على ارتفاع اثني عشر مترًا ، وبتكوين جميل وكامل ، التقطت له عدة صور ، ولم أستطع أكثر من ذلك ، وقد زال المبنى .

وبعد ذلك عكفت على دراسة ما جمعته من وحدات وعناصر ، وأخذت أعدُّ الرسومات الهندسية والمساقط التي تمثلها ، وأبحث عن نظامها الهندسي الذي يمكن أن يقنن ، ووجدته من خلال الوحدة التي يتكون منها النسق العام لكل مشربية ، هذه الوحدة قد تكون مربعًا ، أو مستطيلاً ، أو نجمة ذات أضلاع عدة ، وتتواصل الوحدات مباشرة ، أو بأداة توصيل ، قد تكون خطًا مستقيمًا ، أو متعرجًا ، أو قوسًا ، وتتجمع في متواليات منتظمة ، أو مقطوعة في نقطة معينة أيضًا .

وهكذا يتكوَّن (الشكل) العام لكل مشربية أو نافذة أو سقف أو باب ، وقد أوصلني البحث في وحدات (التشكيل) ونسقه العام إلى اكتشاف مجموعة من الأنظمة الجمالية التي تفتقت عنها عبقريات أسلافنا ، ووجدت فيها مدارس واتجاهات متنوعة .

وهنا قام في نفسي مفهوم جديد للتعامل مع التراث ، مفهوم استحيائه واستثمار فنيَّاته إلى أقصى حد ممكن ، وبما يتلاءم مع طبيعة زمننا ، فإذا لم يكن من المناسب لعصرنا أن نكرر ما فعله أسلافنا حرفيًا ، فإن من المناسب - بل **ومن الضروري - أن نستفيد من النسق الجمالي الذي تفتقت عنه ذهنياتهم المبدعة** ، وليس ثَمَّة مانع أن نستفيد من شكل القوس أو العمود أو الوحدة التصميمية في تكوين جديد نضعه في أقواس أو أعمدة ، وجزء من واجهة وساتر للنافذة ، وغير ذلك ، فنتواصل مع تراثنا ونأخذ منه أبدع ما وصل إليه ، ونطوِّره ونستثمره

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بما يلائم زماننا ، وهذا يقتضي - بالطبع - أن ندرس هذا التراث ونوثّقه ، ونقدِّمه لمن يحسن الاستفادة منه ، وهذا ما عكفتُ عليه ، وجعلته أول همي .

وهكذا تكونت لدي فكرة جمع العناصر المعمارية التراثية ، وإنشاء متحف لها ، وتوثيقها بدراسة علمية ناضجة .

وقد استمرت عملية جمع عناصر البيت المدني حوالي السنتين ، وشملت مصنوعات خشبية ، ومعدنية ، ومجموعات من الحجارة والطين أيضًا ، وبلغ عدد وحدات المشربيات وحدها (٢٠٠) وحدة ، كل وحدة تختلف عن الأخرى .

فكرة إنشاء المتحف :

عندما بدأت جمع وحدات العناصر العمرانية ، لم أكن أظن أنني سأصل إلى هذا العدد الكبير منها ، وكنت أفكر أن أجعلها في جزء من (الفيلا) التي سأبنيها لسكني .

ولكن عندما اتسع الأمر ، وأصبح يحتاج لمكان كبير ، جاءتني نصائح من الذين اطلعوا على ما جمعته ، وتحمسوا لعملي حماسة كبيرة ، فاقترحوا علي أن أجعل عملي في مكان كبير ، يراه الآخرون ، ويرون فيه تراث المدينة وجمالياته .

ونَمَتِ الفكرة مع عملية التوثيق التي بدأتها ، وبدأتُ أشهد نتائجها في تشجيع كل من اطلع عليها ، وفي البشر والسرور الذي أقرؤه في وجوه أهل المدينة الذين عاصروا بقية ذلك التراث العمراني ، وعاشوا في جنباته ، وفي اهتمام بعض المصممين بالخصائص العمرانية التراثية ، واجتهادهم في الاستفادة منها ، وقد جاءني الأخ المهندس عبد الحق العقبي مع مندوب أحد مكاتب التصميم الكبيرة ، وطلبا مني الدراسة التي توصلت إليها ، فأطلعتهم على الوحدات التي وثقتها ، وأعطيتهم الرسومات ، وأريتهم النماذج العملية ، وكانت النتيجة أن دَخَلَتْ هذه الوحدات في تصميمات رئيسية لواجهات المباني التي صمموها ، ودَخَلَتْ بعض (التشكيلات) الجزئية في نسيج البنية العمرانية الجديدة ، وما زالت هذه المكاتب على صلة بي ، وبخاصة المكتب الذي يصمم أكبر إنشاء عمراني في المدينة لصالح (شركة عقار القابضة) في المنطقة المركزية ؛ مشروع سوق بني النجار ، ومشروع سوق

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة القديم ، وغيرهما من المشاريع الضخمة والحيوية ، وهذا هو التواصل الذي نتطلع إليه بين العمران الجديد والقديم ، تواصل يحافظ على السمات الرئيسية للشخصية العمرانية في المدينة ، ويوظف كل التقنيات الحديثة في التجديد والتطوير .

وأذكر هنا أن التوجُّه للمحافظة على التراث والعناية بالأبنية القديمة ليس محصورًا في بلادنا ، ولا هو شكل من أنواع الجمود وعدم التطور ، بل هو توجه عالمي لدى جميع الدول المتقدمة ، وقد خصصت له هيئة (اليونسكو) ، وهي هيئة عالمية تابعة للأمم المتحدة ، أموالاً طائلة ، وكرَّسَت له جهودًا علمية فائقة ، وأخذت ترعى المدن ذات الطابع التقليدي ، مثل : فاس ، وصنعاء ، وتتولَّى توثيق عمرانها بنفسها ، فكيف بالتراث العمراني المدني ! ، وهو غني ، ومتنوِّع وهائل ، يختزن عددًا من متطلبات العمارة الإسلامية الشاملة .

لماذا صنع المجسم ؟

وعن مجسم المدينة الذي يشغل قرابة نصف المتحف يقول : كانت غايتي الأولى من صنع المجسم توثيق المدينة القديمة ، والمحافظة على تصميماتها بصورة تجعل المدينة القديمة حقيقة ماثلة للعيان ، وهذا أسلوب متقدم من أساليب التوثيق ، وقد عانيت كثيرًا في صنع المجسم ، وكانت خريطة المساحة المصرية هي المصدر الهندسي الوحيد ، وهي رفع مساحي دقيق للعمران ، ولكنها تفتقر إلى المعلومات ، وبمعنى أنه لا تصحبها معلومات توضح هذا البناء أو ذاك ، فبدأتُ مرحلة شاقة من جمع المعلومات ، وخلال مراحل صنع المجسم التي استغرقت حتى الآن ما يزيد على أربع سنوات ، كنت أستعين بكبار السن من أهل المدينة ، وأستشيرهم ، واستفيد من معلوماتهم ، وقد أنجزت حتى الآن ما نسبته ٩٠٪ من الصورة الكاملة للمدينة ، وقمت بتعديلات واسعة على امتداد عملي عدة مرات ، وما زلت أدخل إضافات ، وأجري تعديلات بناء على المعلومات المستجدة .

وقد فتحتُ سجلاً للتوثيق ، أسجل فيه آراء وانطباعات الذين عاشوا في المدينة القديمة ، وأستفيد من ذاكرتهم في الوصول إلى المواقع وأسمائها ومضمونها ،

بدأت بأربعمئة موقع ، ووصلت الآن إلى ما يزيد على الألفين من تسميات الدور والمواقع الأثرية ، والمدارس ، والمساجد ، والأربطة ، والأسواق ، والكتاتيب .

وهناك (قائمة) طويلة من المدعوين لزيارته والاطلاع عليه والإفادة بالرأي والتوجيه ، وقد استقبلت حتى الآن ما يزيد على مئتي شخص ، وأتوقع استقبال مثل هذا العدد قبل أن ينجز المجسم بشكل كامل ، ولا شك أن عملاً يوثقه أربعمئة شاهد عَيان ، فضلاً عن الخرائط والصور ، سيصل إلى درجة التواتر ، وهي أعلى درجات التوثيق عند أهل العلم ، وبخاصة المحدِّثين ، الذين هم قمة التدقيق والتوثيق .

بدأت عمل المجسم من نقطة المناسيب ، واستمر هذا العمل مدة سنة كاملة ؛ لإنجاز مناسيب الأراضي في المدينة ، وطابقتها مع دراسات الشركات ، واستخدمت أكثر من (٣٠٠) لوح فلين لصنع الأرضية ، وفق المناسيب (الطبوغرافية) ، ثم حددت مواقع الأحياء والبيوت والمزارع ، ثم صنعت الكتل العمرانية وثبتها .

رؤية مستقبلية للمتحف :

خلال الحوار مع الدكتور كعكي ، كان يُصِرُّ على أن المرحلة الحالية هي مرحلة انتقالية ، وأن المتحف سيأخذ شكله النهائي عبر مشروع كبير يخطط له ، أطلق عليه اسم : متحف المدينة المنورة للتراث العمراني .

يتكوَّن هذا المتحف - كما يتصوره - من عدة أجنحة :

الجناح الأول بعنوان : المدينة المنورة في عيون الرحالة ، يعرض فيه مجموعة مخططات رسمها الرحالة أنفسهم ، وصور التقطوها للمدينة ، جمع منها حتى الآن سبع مخططات ، وثلاثين صورة .

الجناح الثاني بعنوان : تطور الكتلة العمرانية للمدينة المنورة ، ويأمل أن يتضمن مجسمات تبيِّن مراحل نمو وتطور الكتلة العمرانية للمدينة المنورة منذ تأسيسها ، ومرورًا بالعهد النبوي إلى العهد السعودي الحالي .

كما يتضمَّن مجموعة صورٍ لمبانٍ قديمة : بيوت وحصون وآطام في المدينة ، بنيت قبل الإسلام ؛ مثل أطم صرار ، حصن بني واقف ، وأطم بني واقف ، وسيكون المجسم الحالي جزءًا من ذلك الجناح الكبير .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أما الجناح الثالث فهو : عرض خاص للنسيج العمراني التقليدي .

ويتضمن مجموعة صور للأحواش والمدارس والمكتبات والأربطة والحمامات ومباني السكة الحديدية ، يرافقها نماذج لبعض المساقط ، وصور لبعض الرواشين والزخارف والنقوش مع مساقط لها ، وكذا مواد الإنشاء للبيت التقليدي ، مع نماذج منها وصور لها .

وأما الجناح الرابع فهو بعنوان : المقتنيات القديمة التي استخدمت في المدينة المنورة ، ويضم نماذج حقيقية ، وصورًا لبعض مناهج التعليم ووسائله ، ووحدات الإنارة ، وأدوات السقاية والسقايين ، والقطع النقدية ، والطوابع ، ووحدات المواقد ، وأدوات المائدة ، وأواني الطهي ، وأدوات الشاي ، وأدوات القهوة ، والأواني الفخارية والخزفية ، وأدوات الزينة والكماليات ، والفرش العربي للبيت ، ومقتنيات أخرى متفرقة .

الجناح الخامس بعنوان : الحرف المرتبطة بعمارة البيوت التقليدية ، وتضم الأدوات التي تستخدمها طوائف العمل والمشغولات التي تنتجها ، مثل : طائفة الحدادين والحجارين أصحاب (الكوش) والطوب الأحمر ، والبنائين ، والنوارين والدهانين .

وعن مكان المتحف المستقبلي وكيفية إنشائه ، يرى أنه من الضروري أن يكون في قلب المدينة ، قريبًا من التجمعات السكانية ومن الزائرين ، وهذا يتطلب تكلفة عالية جدًا ، تتجاوز الإمكانات الفردية ، وعندما طرحت عليه فكرة الاستفادة من متحف المدينة المنورة ، الذي سيتم افتتاحه قريبًا في مبنى السكة الحديدية الأثري ، تمنى أن يخصص المتحف أجنحة للعارضين الذين لديهم مقتنيات متميزة ، وأن تكون هذه الأجنحة بإدارتهم وفق النظام العام الذي يقرره المتحف ، وأن يكون له عائد استثماري ، توزع بين إدارة المتحف وشاغل الجناح .

وكذلك الأمر بالنسبة لمشروع متحف المدينة ، الذي تعتزم (شركة عقار القابضة) إنشاءَه ضمن مشروع سوق المدينة القديم في منطقة المناخة ، والذي نشرت هذه المجلة بحثًا وافيًا عنه في عددها السابع ، لسعادة الدكتور محمد عبد الرحمن الحصين ، حيث ستخصص أجنحة للعارضين ، ويرى الدكتور كعكي

مُتْحَف عبد المجيد الخريجي
المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أن قيام هذا المشروع سيفتح باب الأمل له ولأصحاب المتاحف الأخرى كي يجدوا موقعًا ممتازًا ، يصل إليه أهل المدينة وزائروها ، وهم آلاف مؤلفة ، كما أنه سيصبح مشروعًا ذا جدوى وأهمية اقتصادية عالية ؛ وبخاصة إذا كانت شروط الشركة مالكة المتحف ميسرة ، تراعي ظروف أصحاب المتاحف الأهلية ، وتتيح لهم فرصة الاستفادة المادية المناسبة .

جنوبي قباء ، في بيت حديث يقع في منطقة لم تزل المساكن فيها قليلة ، وفي أعلاه جناح خاص غير كبير ، ولكنه منسق ، يشعرك من النظرة الأولى أنك في معرض للتراث القديم ، جمع عبد المجيد بن محمد الخريجي مقتنياته ، ورتبها ، ليراها زائروه.

وتتوزع محتويات هذا المتحف الصغير في أركان متخصصة ، ركن للثياب التقليدية ، وركن للآنية ، وركن للأسلحة ، وركن لبواكير الأجهزة المنزلية الحديثة : (الفونوغراف) ، أو الحاكي ، الهاتف ، الراديو الخشبي الكبير .

ويروي الخريجي أنه كان لديه قسم جمع فيه المصاحف المخطوطة المذهبة ، وعددًا من المخطوطات المهمة ، وقد اشترتها مكتبة الملك عبد العزيز في الرياض ، بناء على توجيهات صاحب السمو الملكي : الأمير عبد الله بن عبد العزيز ، الذي اطلع عليها ، وهي معروضة الآن في تلك المكتبة .

وفي ركن آخر مجموعة مجلدات أنيقة متنوعة الحجم لحفظ الوثائق ، يستوعب أصغرها وثائق بحجم ورقة (الفولسكاب) ، وأكبرها جريدة مفتوحة ، وهي مغلفة بالجلد الصناعي المتقن ، وفي داخلها صفائح من الورق المقوى ، تثبت عليها الوثائق وتغطى بورقة من (البلاستيك) الشفاف

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

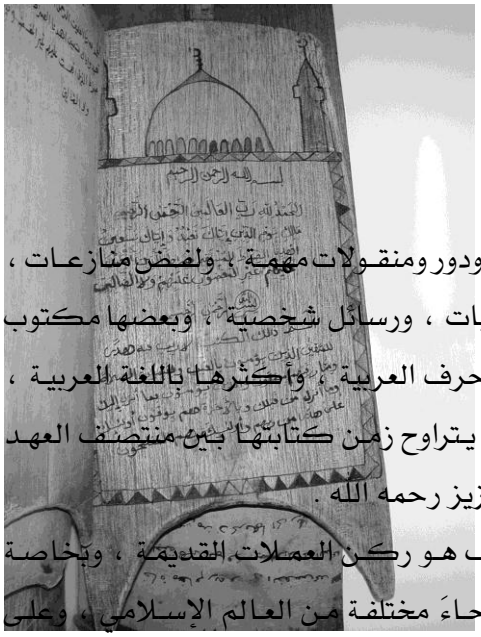

لعزلها عن الهواء ، وتحتاج هذه المجلدات إلى وقت طويل لتصفح الوثائق المحفوظة فيها ، وقد اطلعتُ عليها ، ووجدتها مصنفة تصنيفاً أوليًا جيدًا ، تضم صكوكًا متنوعة لبيع أراض ودور ومنقولات مهمة ، ولفض منازعات ، وعقود زواج ، وخطابات رسمية ، وبرقيات ، ورسائل شخصية ، وبعضها مكتوب باللغة العثمانية القديمة ، التي تعتمد الأحرف العربية ، وأكثرها باللغة العربية ، ويرجع تاريخها إلى قرنين ماضيين ، يتراوح زمن كتابتها بين منتصف العهد العثماني وعهد الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله .

غير أن أهم ما يميز هذا المتحف هو ركن العملات القديمة ، وبخاصة الدنانير الذهبية ، التي صُكَّت في أنحاءَ مختلفة من العالم الإسلامي ، وعلى امتداد العصور الماضية .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويلحظ الزائر العناية الشديدة بهذه (العملات) ، من خلال طريقة حفظها وتصنيفها ، ومع أن المكان لا يتسع لعرض منفرد لهذه (العملات) ، فقد غلفت كل قطعة نصف صفحة من البلاستيك ، بحيث تظهر من جانبي الصفحة البلاستيكية الشفافة ، ونظفت الدنانير قبل تغليفها بعناية ، حتى ليبدو بعضها وكأنها عبر القرون الطويلة في خزائن مصونة ، أو جرار محكمة ، وقليل منها يحمل آثار التداول الكثير ، وتحت (العملة) مباشرة تعريف موجز مطبوع بوضوح ، يُبَيِّنُ تاريخ صَكِّها ، ومكان إصدارها ، وقد رأيت على بعض الصفائح (البلاستيكية) أرقامًا لسعر بيعها ، تدل على أنها كانت معروضة في أحد معارض النقود القديمة ، وأنها معدة للبيع أيضًا .

وأقدم قطعة في مجموعة العملات دينار أموي ذهبي ضُرِبَ في دمشق عام ٧٨هـ ، وهو الإصدار الثاني في تاريخ الدينار العربي الإسلامي ، حيث صدر أول دينار عام ٧٧هـ ، عندما قرر الخليفة عبد الملك بن مروان - رحمهما الله - وقف التعامل بالدينار الرومي[١] .

ويروي الأستاذ عبد المجيد أنه سعى للحصول على الدينار الأول ، ولكنه لم يوفق ، لأنه شبه مفقود ، وإن وجد في وقت ما ، فسيكون من التحف النادرة ، وبسعر خيالي ، وقد سبق هذا الدينار دينار (ساساني) ، كان يصدر في فارس ، وكتاباته بالفارسية ، غير أنه عندما دخلت بلاد الفرس في الإسلام ظهرت كلمات عربية قليلة على بعض الدنانير ، مثل : الله .

---

(١) لم يكن للمسلمين عملة خاصة بهم ، وكانوا يتداولون العملات المصكوكة في بلاد فارس والروم ، ونحوها مما يصل إليهم وبخاصة العملات الذهبية ، ويروي ابن الأثير في : الكامل في التاريخ ، ١٦٧/٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ السبب المباشر لاهتمام الخليفة عبد الملك بن مروان بصك عملة إسلامية خاصة للمسلمين أنه (كتب في صدور الكتب إلى الروم : قل هو الله أحد) وذكر النبي ﷺ مع التاريخ ، فكتب إليه ملك الروم : إنكم قد أحدثتم كذا وكذا فاتركوه ، وإلا أتاكم في دنانيرنا ما تكرهون ، فعظم ذلك عليه ، فأحضر خالد بن يزيد بن معاوية ، فاستشاره فيه ، فقال : حَرِّم دنانيرهم واضرب للناس سكة فيها ذكر الله تعالى ، فضرب الدنانير والدراهم

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتُظْهِر المجموعة توالي إصدار الدينار الإسلامي ، وتفيد وجود تغيَّر كلما تغيَّر الخليفة ، حيث يذكر اسم الخليفة الذي ضُرب الدينار في عهده ، أو يجري تعديل في التصميم ، كما تظهر المجموعة تعدد مراكز إصدار الدينار ، وظهور دنانير ضربت في الولايات التي كانت لها سلطة ونفوذ ، وكان لها استقلال ، رغم تبعيتها الاسمية للخليفة ، مثل أذربيجان وحلب والرها ، وتحمل هذه الدنانير أسماء أمرائها وسلاطينها وتاريخ إصدارها .

كما أن الخلافات المتعددة كانت لها دنانير تعد جزءًا من شخصيتها واستقلاليتها ، فهناك الدينار الأندلسي ، والدينار الفاطمي .

وتبدو شخصية المكان والزمان في الدينار ، من خلال تنوُّع التصميم ، وتنوع الكتابة ، فبعضها يتضمن على الوجه الرئيسي البسملة فقط ، وعلى محيط الدينار من الداخل سنة الإصدار ، وبعضها يتضمن عبارة التوحيد :لا إله إلا الله ، وبعضها تكثر الكتابة فيه ، كالدينار الفاطمي ، الذي ضرب سنة ٥١٥هـ ، يتضمن ثلاث دوائر ، في الأولى عبارة :لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفي الثانية محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وفي الثالثة : الإمام عبد المجيد ، وعلى الوجه الآخر دائرتان ، الأولى : الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين أبو علي ، والثانية : بسم الله الرحمن الرحيم ، ضرب هذا الدينار بمصر سنة خمس عشرة وخمسمئة .

أما صاحب المتحف فقد ولد عام ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م ، في أسرة لها موقع متميز في العلاقات مع الدولة السعودية ، منذ أن دخلت المدينة المنورة في ظلالها ، حيث قامت بدور الإدارة المالية قبل أن تتشكل الإدارات ، وظلت على امتداد عهد الملك عبد العزيز وعهد الملك سعود جهة صرف معتمدة لعدد من الأنشطة التعليمية والصحية ، وكانت - كما تبين الوثائق المحفوظة في المتحف نفسِه والتي نُشر بعضها[1] - ، وتصرف الأموال المقررة من الدولة لبعض المدارس والموظفين ، والإدارات الأخرى ، كما تستقبل بعض الوفود الرسمية ، وضيوف الدولة ، وتهيئ لهم السكن والضيافة ، وتستضيف الأمراء وكبار الشخصيات من داخل المملكة وخارجها ، فقد كانت في حالة مادية ميسورة ، وكان لها أنشطة اقتصادية مهمة .

عاش عبد المجيد الخريجي في أسرة كبيرة العدد ، (ثمانية عشر فردًا) ، ودرس إلى نهاية المرحلة الثانوية في المدينة ، ثم ابتعث إلى (أمريكا) لدراسة الإدارة ، وعاد منها ليعمل في البنك الأهلي ، وتقلب في مناصب عدة ، آخرها : المدير الإقليمي للبنك الأهلي في منطقة المدينة المنورة ، وما زال على رأس عمله هذا .

(١) انظر : في جوانب من تاريخ المدينة المنورة في العهد السعودي ، وثائق مختارة من مجموعة عبد المجيد بن محمد الخريجي ، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

ويروي الأستاذ عبد المجيد قصة ارتباطه بالتراث بأنه كان ميلاً شخصيًا منفردًا ، ولم يكن أحد في عائلته الكبيرة يشاركه هذا الميل ، وعلى العكس من ذلك عندما بدأ بجمع المقتنيات القديمة كان يواجَه بنظرات الدهشة والاستغراب ، عدا والدته التي أرادت - بحنان الأمومة - أن تدخل السرور على نفسه ، فجمعت له من صديقاتها عددًا من مقتنيات البيوت القديمة ، وقد نَمَتْ هذه الميول بعد سفره إلى (أمريكا) ، حيث وجد اهتمامًا متميزًا بالتراث ، وتعرَّف على المتاحف ، وبيوت المزادات ، التي تتداول المقتنيات ، وتعرف فيها على العملات القديمة ، وأهميتها ، وشَدَّه الدينار الإسلامي ؛ كونه جزءًا من تراثه العربي الإسلامي ، وبدأ من خلالها خطواته الأولى في هذا الميدان الواسع ، وساعدته إمكاناته المالية على شراء عدد كبير منها ، ودخل في تجارتها ، ولمس جدواها الاقتصادية ، فضلاً عن جدواها الثقافية ، والتراثية ، فنشط في الشراء والبيع ، وأخذ يعد مجموعته المتكاملة والمتميزة ، والتي تجاوز عددها في بعض المرات ثلاثين ألف قطعة ، وما زالت حتى الآن في حدود عشرين ألف قطعة ، يحتفظ بها في صناديق خاصة في البنك ، ويعرض في متحفه نماذج محددة منها ، وقد عُرِفَتْ مجموعته بأنها إحدى المجموعات الضخمة والمتميزة في ميدان العملات القديمة .

وتتضمن هذه المجموعة سلسلة الإصدارات منذ عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٨هـ ، إلى آخر الإصدارات في عهد الأشراف في الحجاز ، والمؤرخة بسنة ١٣٣٤هـ ، وبسبب التجارة في العملة ؛ فهناك قطع مكررة كثيرة ، وقطع وحيدة يتيمة ، لأنها في الغالب نادرة ، يصعب الحصول على أكثر من قطعة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من هذه القطع النادرة ؛ قطعة كتب عليها الملك حسين ملك البلاد العربية ، وقد صُكَّت من هذه العملة ثلاث قطع فقط على سبيل التجريب ، أصدرتها بريطانيا في فترة اتفاقها مع الشريف حسين على الثورة ضد العثمانيين ، وأرسلتها إلى الحجاز ، وكان الشريف حسين قد اتخذ لنفسه هذا اللقب دون التشاور مع أحد ، فظهرت اعتراضات كثيرة ، فتراجعت بريطانيا عن تعهداتها ، فألغي هذا الدينار ، وصدر عوضًا عنه دينار ، كتب عليه : الشريف حسين ، الناهض بالبلاد العربية . لذلك لا يوجد في العالم - على حد اعتقاد الخريجي - إلا تلك القطع الثلاث ، واحد في مجموعته ، وأخرى في مجموعة المحامي سمير شَمَّا وواحدة في بريطانيا ، وقد صكت في بريطانيا ، وكتب عليها : ضرب في مكة .

وليس في المجموعة - كما يروي صاحبها - دنانير صكت في المدينة ، وخلال سنوات جمعه للعملات كان يبحث عن أية عملة فيها ذكر للمدينة ، وقد صادفته هذه العملة مرتين ، الأولى في مزاد علني في إحدى الدول الأوربية عليها اسم المدينة ، وكانت نادرة جدًا ، وبيعت بسعر مرتفع جدًا ، ما يعادل ثلاثمئة ألف ريال ، فوقع المزاد على غيره ، ولم يستطع أن يتحقق من هذا الدينار .

والثانية عندما جاءه أحد جامعي التحف القديمة في المدينة يعرض بيعه متحفًا كاملاً أنشأه خلال سنوات ، وجمع فيه مقتنيات كثيرة ، وعرضه على المهتمين بجمع التراثيات ، ومنهم عبد المجيد الخريجي ، فلما اعتذر بتخصصه بالعملات ، ذكر له أن في متحفه عملة قديمة ، كتب عليها : ضرب في المدينة ، فذهب فورًا إلى متحفه ، وتفحص العملة ؛ أملاً في أن يكون كشفًا غير مسبوق ، ولكن تبين أن في الأمر لبسًا ، وأن كلمة المدينة يقصد بها غير المدينة المنورة ، ومن لا يملك الخبرة المتخصصة والمتحققة يلتبس عليه الأمر ، ويتوقع أن تكون هذه القطعة كالقطع القديمة التي ذكر فيها اسم مكة ، والحقيقة غير ذلك ، إذ إنها ضربت في مصر في العهد الفاطمي ، وكانت تعطى لكبار الشخصيات المسافرين إلى مكة لأداء فريضة الحج .

ولا شك أن غياب اسم المدينة عن تاريخ العملات يثير تساؤلات عدة ، خاصة وأن منجم مهد الذهب كان موجودًا منذ القديم ، وكانت تستخرج منه فلزات

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الذهب وترسل إلى العواصم التي تتبعها المدينة : القاهرة أو دمشق أو استامبول ، وقد يكون هذا الغياب مؤشرًا على عدم تكامل السيادة لإمارة المدينة ، أو عدم وجود التقنيات اللازمة لسك الدينار .

ويشير الخريجي إلى بعض الصعوبات التي واجهته أثناء جمع العملات ، في مقدمتها صعوبات إدارية ، بسبب سوء فهم الأنظمة ، فقد كان يشتري العملات من المزادات العالمية عن طريق سماسرة يتعامل معهم ، وعندما يرسلونها إليه بالبريد ، كان يلاقي بعض العنت في دخولها ، بحجة وجود اتفاقيات عالمية تمنع نقل الآثار من مواطنها ، حفاظًا عليها ، وللحد من التجارة غير الشرعية بها ، فمثلاً : إذا حاول أحدهم نقل تمثال من مصر إلى إيطاليا ، فإن القانون الدولي يطلب من المسؤولين الإيطاليين منع دخولها ، وإعادتها إلى بلدها الأصلي مصر ، ويقول الخريجي : إنه تعب في إقناع بعض الموظفين بأن هذه الأحكام لا تنطبق على الدنانير التي يشتريها ، لأن تلك الدنانير ليس مصدرها الأصلي أوربا ، أو المدن التي تباع في مزاداتها ، وإنما مصدرها العالم الإسلامي ، ثم إن تجارة العملات القديمة مشروعة في أنحاء العالم ، ومطبقة في أسواق المزادات العلنية ، وعندما تباع قطعة تصدر شهادة بها للمشتري ، تبين شرعية اقتنائه لها ، وقد اضطر الخريجي إلى اللجوء للجهات العليا لتساعده على تجاوز هذه العقبة ، وكان لصاحبي السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز ، والأمير مقرن بن عبد العزيز الفضل في تيسير دخول هذه العملات وخروجها .

إضافة إلى العملات المعدنية ؛ يضم متحف الخريجي مجموعة من العملات الورقية منذ العهد العثماني إلى وقتنا المعاصر ، منها مجموعة كاملة لجميع الإصدارات في العهد السعودي ، فيها السندات التي أصدرتها الدولة للحجاج ، فتعامل بها الناس ، وصارت عملة متداولة ، رغم أنها لم تصدر بهذا القصد ، وتعد هذه السندات بداية للعملات الورقية السعودية .

من عطاءات المتحف :

ويرى الخريجي أن الخبرة التي تجمعت لديه من خلال متابعته للعملات القديمة ، جعلت بعض الجهات الرسمية والثقافية تستشيره في عملات تصلها ، أو في دراسات

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تعمل على إصدارها ، وقد ولدت هذه الاستشارات إحساسًا لديه بحاجة المكتبة العربية والجهات الرسمية والأهلية ، والهيئات الثقافية إلى مرجع معتمد ، يوثق بالصورة والكلمة الدنانير الإسلامية ، ويضع لها معايير ثابتة يستخدمها كل من يحتاج إليها ؛سواء في تقييم عملة مطروحة في السوق ، لتمييز الصحيح من الزائف ، والحقيقي من المقلد ، أو في دراسة منهجية . لذلك عكف على تأليف كتاب يعرض الدنانير الذهبية الإسلامية ، منذ إصدارها الأول ، وحتى الإصدار الأخير ، وحرص على أن يضع صورة (فوتوغرافية) ملونة لكل دينار ، وأن يذكر مواصفاته بدقة ، ووزنه ، وقطره ، وتاريخ إصداره ، ومكان الإصدار ، والعلامات المميزة ، وشاركه الأستاذ نايف بن عبد الله الشرعان ، المسؤول عن متحف العملات في مؤسسة النقد بالرياض بمعلومات تاريخية عن الممالك التي صدرت فيها ، وأهم سلاطينها وأمرائها ، فتكاملت المعلومات .

وكان لهذا الكتاب أثر طيب في تأصيل المعايير وإشاعتها ، والمساعدة على مكافحة الغش والتزييف ، لأنه غطى عصور التاريخ العربي الإسلامي ، واستوعب معظم الدنانير التي صدرت في الممالك والإمارات الإسلامية .

وقد استغرق إعداد الكتاب ثلاث سنوات ، واستعان فيه بالعديد من الخبراء ، وبخاصة عندما تصادفه كتابات معقدة على بعض الدنانير .

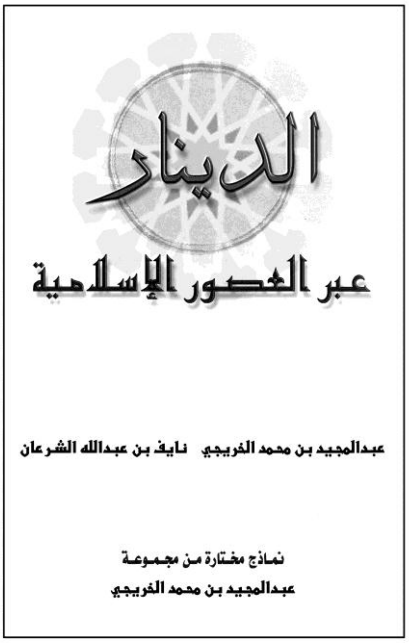

ويذكر الخريجي أنه لا يوجد في العالم العربي أو الإسلامي - على حد علمه - معهد أو كلية أو قسم متخصص في العملات القديمة ، وأن هذه العملات تستعرض أحيانًا في بعض أقسام التاريخ أو الآثار بشكل غير معمق .

ومن الأمور التي يتطلع إليها الخريجي : نشر الوعي التراثي في الجيل المعاصر ، وتنمية الارتباط به ، وتعزيز أنشطة هواة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جمع المقتنيات التراثية ، ويتطلع إلى ظهور
جمعيات أهلية تدعمها الجهات الرسمية ،
وبخاصة لهواة جمع العملات القديمة ، على
غرار جمعيات هواة جمع الطوابع ، ليقوم تواصل حميد بين أفرادها ، يتم فيه تبادل المقتنيات ، وصنع مجموعات متكاملة ، فالنسخ المكررة لا تفيد صاحبها إلا بالتبادل مع غيره ، لاقتناء ما ليس عنده ، وكذا دعم المهتمين بالتراث ،وبخاصة الذين يبذلون الجهد والمال لإنشاء متاحف خاصة ، تساند المتاحف الرسمية ، وتكمل ما ينقصها .

وعن مستقبل متحفه ؛ يتطلع الخريجي إلى تطويره أيضًا ، ويشارك أصحاب المتاحف الأخرى الأمنيات في أن يجمع هؤلاء متحف متعدد الأجنحة ، يكون لكل جناح صاحبه وتخصصه ، سواء في ظل المتحف الكبير ، الذي ستقيمه إدارة الآثار في محطة السكة الحديدية ، أو في متحف خاص تنشئه شركة أهلية في موقع قريب من المسجد النبوي ، ليستفيد منه أهل المدينة ، ومئات الآلاف من زوارها كل عام.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مُتْحَـــف أحمد أمين مرشـــد :

يقع متحف أحمد أمين مرشد في شقة بالطابق الأرضي من (فيلا) بحي الأزهري ، فما إن تدخل باب الشقة حتى تواجهك اللوحات المثبتة على جدار الممر ، والتي تمتد متوالية إلى جدران صالة واسعة ، مثل صالات الاستقبال في بيوت المدينة ، أكبر غرفة في البيت عادة .

وتتنوع صور اللوحات المعلقة ، معظمها لواجهات بيوت قديمة ، وأجزاء من شوارع ضيقة ، ومشاهد من أسواق مزدحمة ، كانت أهم معالم المدينة قبل قرن أو أكثر ، وامتد العمران إلى بعضها ، فطوتها التغيرات العمرانية قبل عقدين من الزمن ، فدخل بعضها في توسعة المسجد النبوي ، وتحول بعضها إلى ساحات ، وزال بعضها ، ليقوم مكانه مجمع سكني تجاري ضخم ، يشغل وحده نصف شارع قديم ...

وتشد الأنظار لوحات تمثل مشاهد من أحداث كبيرة وقعت في المدينة المنورة قبل عدة عقود ، كالحريق الذي شب في سوق القماشة عام ١٣٩٧هـ ، وأتى على السوق كله ، وتحول بعده السوق إلى ساحات دخلت في توسعة المسجد النبوي ، وصورٍ لمشاهد هدم بيوت قديمة في أحياء أعيد تخطيطها ، ودخلت في مشروع تطوير المنطقة المركزية ، وصور لجوانب من سوقٍ عامرٍ بالحركة ، وكل لقطة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تمثل واحدًا من أنشطة السوق ، وصور لشوارع أقيمت في العهد العثماني وهي تحت الإنشاء ، وأخرى لخط السكة الحديدية يمتد من محطة السكة الحديدية في العنبرية ، وينقطع قبل أن يصل إلى المسجد النبوي ، وصور لفيضان وادي العقيق ، ومياهه تغمر مناطق واسعة حول ضفتيه ، وصور لمشاهد من توسعة الملك عبد العزيز للمسجد النبوي ، وهي التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٧٠هـ ، وانتهت عام ١٣٧٥هـ ، وصور لمواقع أثرية ومساجد نبوية قبل تطويرها ... وتنتقل بك هذه الصور المتلاحقة للمدينة المنورة من نهاية العهد العثماني ، إلى العهد الهاشمي ، إلى بداية العهد السعودي ، فتعيش مناخها القديم ، وترى سورها وقلعتها وأبراجها وقبابها المنتشرة وشوارعها الترابية الضيقة .

ولا تنتهي صور المتحف بانتهاء اللوحات المعلقة على الجدار ، فما إن يفرغ الزائر من استعراضها حتى يعرض عليه صاحب المتحف مجموعة مغلفات زرق ، وضع فيها مسودات أفلام صغيرة ، يسمونها في مصطلح المصورين (النسخة السالبة Negative) ، وهي الأصول التي تطبع منها نسخ على ورق حساس ، وتضم هذه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

النسخ السالبة - كما يروي صاحب المتحف - ستة آلاف لقطة لستة آلاف منظر من المدينة المنورة قبل تطويرها ، وأعد لها فهرسًا وصفيًا منظمًا ، وسوف يطبعه - في كتاب كامل - لاحقًا ، وقد عرض مجموعة منها على شبكة (الإنترنت) في موقع اسمه : (رحاب المدينة) ، يشارك فيه ، ويمكن لمن يستعرض الموقع أن يسحب منه الصور التي يريدها ، ويطبعها ، ولكن لن تكون بنقاء الأصول التي لديه .

وفي خزانة أخرى يعرض صاحب المتحف مجموعة علب معدنية ، فيها (أفلام سينمائية) من مقاس (٨ مليمتر) ، وأخرى من مقاس (١٦ مليمتر) ، ويقرر : أن جميعها لمناظر من المدينة المنورة قبل التطوير ، يتراوح تاريخ تصويرها ما بين أربعة إلى سبعة عقود قبل وقتنا هذا ، وتستعرض أحياء المدينة ، وشوارعها ، وبيوتها قبل أن يأتي عليها التغيير اللاحق .

وفي خزانة ذات واجهة زجاجية تقف في ركن الصالة ، وضع صاحب المتحف مجموعة من المجلدات متوسطة الحجم ، يعرض فيها على الزائرين المهتمين مجموعة من العملات القديمة ، حفظت كما تحفظ الصور في الألبومات ،

وصنفت حسب نوعها فقط ، مجلدات للعملات المعدنية من السعودية ، وبعض البلاد العربية والتركية ، وعلى الزائر أن يجتهد في فحصها ليتعرف عليها ، فليس في المجلدات أي تعريف بها أو كتابة عنها ، وكذلك المجلدات الأخرى التي وضعت فيها عملات ورقية مختلفة ، يرجع أقدمها - كما رأينا - إلى عام ١٩١٩م ، وهي قروش أصدرتها الدولة السورية التي تأسست على يد فيصل بن الشريف حسين إثر إسقاط الدولة العثمانية ، ودخول ما سمي وقتها بالجيش العربي دمشق ، وإعلانه الاستقلال لفترة وجيزة ، والطريف أن إحدى هذه العملات ورقة من فئة خمسة وعشرين قرشًا على شكل سند محول على (البنك الفرنسي في باريس) ، طبعت في فرنسا قبيل أن يعصف جيشها المحتل بالحكومة العربية ، ويلغي استقلال سورية ، وينقل فيصل بن الشريف حسين إلى العراق ، ليُتَوِّجَهُ مَلِكًا عليها ... ويبدو أن هذه العملات معدة للبيع أكثر مما هي معدة للعرض المنظم ، لأنها تحتاج إلى تصنيف وتعريف ، وأسلوب عرض يختلف عما هي عليه الآن .

وأما صاحب المتحف ، فقد ولد في المدينة المنورة عام ١٣٦٩هـ ، ودرس فيها حتى نهاية المرحلة الثانوية ، ثم التحق بقسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة الملك سعود في الرياض ، وتخرج فيها عام ١٣٩٤هـ ، وعمل مدرسًا في مدارس الحرس الوطني في المدينة المنورة ، وما زال .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويعزو الأستاذ أحمد مرشد الفضل في اهتمامه بالتراث إلى أستاذه في مادة التاريخ في المرحلة المتوسطة محمد حسوبة ، الذي زرع في طلابه حب التراث ، وكانت أولى نتائج تلك الغراس اهتمامه بجمع صور المدينة القديمة من الكتب والمجلات والصحف ، التي يعثر عليها آنئذ ، ونما هذا الشعور لديه ، كما تطور اهتمامه بصور المدينة ، واشترى آلة تصوير بسيطة عندما صار في المرحلة الثانوية ، وأخذ يلتقط صورًا لبعض البيوت والأحواش والمشربيات التي تلفت نظره ، وعندما صار طالبًا في قسم التاريخ ازداد اهتمامه بالتراث ، واستطاع بما يحصل عليه من دخل - راتب الطالب الجامعي - أن يشتري آلة تصوير أفضل ، يطوف بها عندما يأتي المدينة - في إجازات الدراسة - على الأحياء ، ويعيد تصوير ما سبق أن صوره (بالكاميرا) القديمة من قبل ، ويلتقط مشاهد أخرى لم ينتبه لها آنذاك .

وفي عام ١٣٩٦هـ - والرواية ما تزال لصاحب المتحف - أهداه صهره (كاميرا سينمائية عيار ٨ مليمتر) ، أحضرها من أمريكا ، وكانت حدثًا كبيرًا لديه ، فقد اشترى مجموعة (أفلام) ، وراح يطوف من جديد في الشوارع ، ويصور هنا وهناك ، واهتم هذه المرة بتصوير فعاليات الحياة ، والأحداث والمناسبات ، وأخذ يصنع (أفلامًا) تسجيلية لأحياء بأكملها ، ولا سيما وقد أنهى دراسته ، وعاد إلى المدينة ليستقر فيها ، ويرصد أحداثها ، حتى أصبح معروفًا بالتصوير ، يدعوه الأقارب والأصحاب لتصوير مناسباتهم الاجتماعية وأفراحهم ، ويذكر الأستاذ مرشد بفخر أنه كان الوحيد الذي صور أحداث حريق سوق القماشة الذي وقع في ١٩ رجب ١٣٩٧هـ ، فقد تصادف أنه كان قريبًا من الموقع ، وسمع جلبة الناس وهم يهربون فزعين ، فحمل آلتي التصوير (السينمائية) والعادية ، وسار باتجاه معاكس للناس ، مقتربًا من الحريق ، ليصور لقطات نادرة لزحف النيران ، والجهود الضخمة التي بذلها رجال الإطفاء ومن ساعدهم ، ولكن ضخامة النيران كانت أكبر من جهودهم ، فأتت على السوق بأكمله .

وعندما بدأ مشروع تطوير المنطقة عمرانيًا ، وبدأت الهدميات ؛ عمل على تصوير المنطقة كاملة قبل أن تتهاوى تحت أسنان الجرافات ، وازدادت مكاسبه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في هذا الميدان عندما عثر على أفلام تركها أصحابها في البيوت المهجورة ، وعثر فيها على لقطات مهمة لأحياء وأحواش وبيوت في المدينة ، فأضافها إلى مجموعته ، كما استطاع أن يلتقط من جدران البيوت المهجورة لوحات فيها صور قديمة ، لم يدرك أصحابها أهميتها ، أو زهد فيها ورثة من اقتناها ، فكانت إضافة أخرى إلى مجموعة الصور التي تجمعت لديه .

ويذكر الأستاذ أحمد مرشد انعطافًا آخر في قضية الصور ، جعله يدرك فوائد عمله له وللآخرين ، فقد أقامت مدرسة طيبة الثانوية معرضًا بمناسبة ذكرى تأسيسها ، ودعته للمشاركة فيه ، فانتقى مجموعة من اللقطات للبيوت والأحياء القديمة التي زالت ، وكبرها وعرضها في الجناح ، وفوجئ بالإقبال الشديد عليها ، وبرغبة عدد من زوار المعرض في شرائها ، فأخذ ينسخ منها ويبيع بثمن يصفه بأنه معتدل ، فنبهه هذا الحدث إلى أن شريحة مهمة من الناس

يمكن أن تستفيد من هذه الصور ، في مقدمتهم الباحثون في تاريخ المدينة وتراثها وتقاليدها الاجتماعية ، والمهندسون المهتمون بالتراث العمراني ، ومحبو المدينة ، فعكف على مجموعته ، واستعان ببعض أصدقائه فصنفها وفهرسها ، ورتب

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأفلام السينمائية ، واشترى جهازًا يطبع اللقطات المرغوبة على أوراق حساسة ، فأصبح لديه مجموعة كبيرة ، شكلت أول تنظيم لمتحفه ، ونقله من الملحق العلوي ، إلى شقة كاملة في الدور الأرضي ، وأضاف إليها المقتنيات التراثية التي جمعها أيضًا خلال تصويره ، على امتداد خمس وعشرين سنة ، فظهر متحفه متكاملاً عام ١٤١٤هـ ، وأخذ يستقبل الأصدقاء والزوار ، والمهتمين بتراث المدينة ، الذين بلغهم خبر هذا المتحف الخاص ، وبدأ - كما يقول - الباحثون الذين يعدون لإصدار كتب عن المدينة يزورونه ، ويطلبون منه نسخًا من صور معالم المدينة وأحيائها ، ويؤكد أن معظم الذين أصدروا تلك الكتب في العقد الماضي ضمنوا كتبهم صورًا من مجموعته ، وأنه كان يُهديهم إياها غالبًا دون مقابل .

أما المقتنيات التراثية ، فيقول : إنه كان يملك كمية كبيرة منها ، وقد اشتراها النادي الأدبي بالمدينة المنورة ، وأنشأ منها متحفًا خاصًا ملحقًا بالنادي ، افتتحه صاحب السمو الملكي الأمير عبد المجيد بن عبد العزيز آنئذ ، وكانت تشغل حيزًا كبيرًا من متحفه ، فلما انتقلت إلى النادي قرر أن يتخصص في الصور والأفلام ، ويترك المقتنيات لأصحاب المتاحف الأخرى ، باستثناء مجموعة العملات القديمة ، التي لا تشغل حيزًا كبيرًا ، والتي يأمل أيضًا أن يبيعها ذات يوم بسعر مناسب .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويقرر الأستاذ أحمد مرشد : أن متحفه أصبح مرجعًا للصور (الفوتوغرافية) و (الأفلام) عن المدينة القديمة ، وأن عددًا من الصحف والمجلات والقنوات الفضائية قد اشترت منه عددًا من الصور ، وأن آخرين يفاوضونه لشراء (الأفلام) ، وهذا يؤكد أهمية صوره وقيمتها التوثيقية ، ويسوِّغ قناعته بجدواها الاقتصادية ، ويشجعه على بيعها بسعر معقول ، لأنها - كما يقول - كلفته الجهد والوقت والمال ، وهو يعرضها مجانًا ، ويبيعها لمن يستفيد منها بأسعار مناسبة ، ويرحب بزائريه ، ويخصص يوم الأربعاء لكل من يقصده .

وبعد ؛ فبماذا نخرج من هذا كله ، وما دلالاته ؟

أول ما نخرج به هو هذه الصلة الحميمة بالتراث ؛ تراث المدينة المنورة ، حاضرة وبادية ، حيًا ، وشارعًا ، وبيتًا ، وأدوات معيشة يومية ، وعمرانًا متميزًا ... وكل ما يحمل بصمات المدينة وخصائصها المتميزة ، حتى لتصبح صورة بيت قديم مثارًا لعواطف متدفقة .

ومما نخرج به أيضًا أن هذه المتاحف هي وفاء لجيل قريب ؛ جيل آباء أصبحوا كبارًا في السن ، أو أجداد انتقلوا إلى رحمة الله ، ولكن ذكراهم لم تغب عن مخيلة هؤلاء الأوفياء ، ورغبة صادقة في ألاَّ تضيع تلك الصورة القديمة عن الأجيال ، وحرص على أن توثق في نماذج شاخصة ، وصور تزين البيوت الحديثة والقصور ، ومعلومات في كتب محفوظة .

ومما نخرج به كذلك أن هذه المتاحف تعبير عملي عن الحب الكبير لهذه المدينة ، التي دخل حبها قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، واستأثر بكل مشاعر هؤلاء الذين اجتهدوا في حفظ تراثها .

ولئن كانت المتاحف الخاصة مبادرات فردية ، نشأت بدوافع عاطفية نبيلة ، فإنها - ولا شك - تلفت الأنظار ، وتستحق الرعاية والاهتمام ، حتى وإن تداخلت معها دوافع اقتصادية ، تهيئ لها ظروف الاستمرار ، وإن الاهتمام العالمي

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالتراث ؛ سواء على مستوى الاهتمام بالمدن القديمة ، أو بالعادات والتقاليد وما يُسمى «الفلوكلور» الشعبي ليس عبثاً ؛ فهو الجسر الذي يمتد بين الأجداد والأحفاد ، وينبغي له أن يبقى ممتدًا ومفتوحًا ، وهو نوع من أشكال المحافظة على الطوابع الشخصية في زمن العولمة وطغيان الآخر .

وأحسب أن الجهود الضخمة ، التي تبذلها الجهات المعنية للمحافظة على التراث ، وإنشاء متاحف له ، ستجد في هذه المبادرات روافد تصب في نهرها الكبير ، وإنجازات جاهزة ، توفر عليها شيئًا من عناء البحث والجمع والاقتناء ، كما أن رعايتها وإتاحة الفرصة لها ؛ سواء في أجنحة خاصة تهيؤها لهم ، أو دعم معنوي ومادي ، سيكون رسالة مفتوحة لكل صاحب ريادة ومبادرة ؛ أن يواصل ريادته ، ويستمر في مبادرته ، ويقدِّم لمجتمعه العطاء المتميز الذي يتطلع إليه .

ثم إن تراث المدينة بالذات ، حقيق بأن يلقى العناية والرعاية ، لأنه - وهو جزء من تراث المملكة - يتواصل في امتداد طويل وبعيد ، مع ذلك التراث المدني ، الذي يقبس من مشكاة النبوة ، وينهل من معينها الصافي الثر ، وتظهر آثاره فيه بشكل أو بآخر ، وتزداد قيمته الشعورية بما يكتسبه من قدسية هذه المدينة ومكانتها في القلوب ، فالمدينة تبقى - دائمًا وأبدًا - متميزة ومحظوظة بآثار دعاء رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَينَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ »[1] ، وسيبقى كل تراث صالح فيها عزيزًا على النفوس ، يحكي جزءًا من حياتها في لحظة زمنية ماضية .

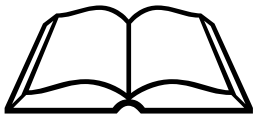

(١) متفق عليه ؛ أخرجه البخاري ، في الحج ، رقم : ١٨٨٩ ، ومسلم ، في الحج ، رقم : ١٣٧٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة